أثر السيـــــاق في توجيـــه المعنى

دراسة في"بدائع الفوائد" لِابْنِ قَيِّمِ الْجَوْزِيَّةِ

إعداد

د . هبة جمال عبد القوي

مدرس أصول اللغة بكلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنات بالإسكندرية

أثر السيــاق في توجيــه المعنى دراسة في "بدائع الفوائد" لابْنِ قَيِّمِ الْجَوْزِيَّةِ

هبة جمال عبد القوي

قسم أصول اللغة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، جامعة الأزهر، مصر.

الملخص :

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله؛ سيدنا وحبيبنا ونور قلوبنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وبعد،،،

فإن نظرية السياق تُعدّ محورًا رئيسًا من محاور علم الدلالة، وهي من أهم ثمرات الدرس اللساني؛ حيث جعلت منه نظرية ومنهجًا متكاملًا في دراسة المعنى. وقد يغلب على الظن أن هذه النظرية لا أثر لها عند علمائنا القدامى، وأنها غربية المنشأ، وهذا ادعاء لا أساس له من الصحة؛ فمن يطالع كتب التراث سيجد إسهامات –لا يستهان بها– في التنبُّه إلى الدور الخطير الذي يُمَثِّله السياق في توجيه المعنى؛ فقد لجأ إليه علماء العربية في معالجة كثير من قضايا اللغة، وركّزوا جُلَّ اهتمامهم عليه، وعَدُّوه عاملًا أساسًا في فهم دلالة الألفاظ والتراكيب. وانطلاقًا من هذا وقع اختياري على شخصية العالم الجليل "ابن القيم" من خلال كتابه (بدائع الفوائد)؛ لإثبات قدم السبق لعلماء العربية في هذه القضية، واقتضى هذا وسم موضوع البحث بـ (أثر السياق في توجيه المعنى –دراسة في"بدائع الفوائد" لابْنِ قَيِّمِ الْجَوْزِيَّةِ). وسوف أثبت –بالأدلة– كيف وظَّف ابنُ القيم السياقَ في تحديد الدلالة اللغوية للتراكيب من خلال هذا الكتاب الماتع، الجامع لعظيم الفوائد، الحاوي ثروة لغوية فريدة.

ولا يسعني في الأخير إلا أن أحمد الله –تعالى– على توفيقه لإتمام هذا العمل، وأساله أن ينفع به، والحمد لله رب العالمين.

الكلمات المفتاحية: (السياق اللغوي– قصد المتكلم – استنباط المخاطب– القرائن– بدائع الفوائد).

The impact of context on guiding meaning: A study in "Bada'i al-Fawa'id" by Ibn Qayyim al-Jawziyyah.

Hiba Jamal Abdul Qawi,
Department of Language Foundations, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Alexandria, Al-Azhar University, Egypt.

Abstract:
In the name of God, the most gracious, the most merciful Praise be to God, and prayers and peace be upon the most honorable creation of God. Our master, our beloved, and the light of our hearts, Muhammad, may the best prayers and greetings be upon him.

And after,,,

Context theory is considered a major axis of semantics, and it is one of the most important fruits of the linguistic study. It made it an integrated theory and method in the study of meaning. It may be thought that this theory has no effect on our ancient scholars, and that it is of Western origin, and this is an unfounded claim. Whoever reads heritage books will find significant contributions to paying attention to the roleThe danger that context represents in directing meaning; Arabic scholars have resorted to it in dealing with many language issues, focusing most of their attention on it, and considering it a fundamental factor in understanding the meaning of words and structures. Based on this, I chose the personality of the eminent scholar “Ibn al-Qayyim” through his book (Bada’i’ al-Fawa’id); To prove the precedence of Arabic scholars in this issue, this required a tag The research topic is (the effect of context in directing meaning - a study in “Bada’i’ al-Fawa’id” by Ibn Qayyim al-Jawziyyah). I will prove - with evidence - how Ibn al-Qayyim used context in determining the linguistic significance of constructions through this enjoyable book, which brings together great benefits and contains a unique linguistic wealth.

In the end, I can only thank God - the Almighty - for his success in completing this work, and I ask Him to benefit from it, and praise be to God, Lord of the Worlds.

Keyword: (linguistic context - speaker’s intention - inferring the addressee - evidence - deposits of benefits).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، الوهّابِ المعين، والصلاةُ والسلامُ على سيّدِنا محمدٍ النبيِّ الأمين، وعلى آلهِ الطيبينَ الطاهرينَ وصحبهِ البررةِ المتقين.

وبعد،،،

فلقد احتفى علماؤنا القدامى –على اختلاف مشارفهم، من: لغويين، وبلاغيين، ومفسرين، وأصوليين– بدراسة السياق؛ نظرًا لأهميته الكبرى في توجيه الدلالة وتبيان مقاصد الخطاب، وقد ظهر هذا الاحتفاء واضحًا جليًا في مؤلفاتهم الفريدة، التي لمسنا –من خلالها– العديد من العبارات والقواعد التي تؤكد مدى إدراكهم لعامل السياق في توضيح الدلالة، ولعل العبارة المنسوبة إلى أكثم بن صيفي "لكل مقام مقال" هي من أفضل وأشهر ما قاله أسلافنا العرب في أهمية السياق، وتؤكد –بما لا يدع مجالًا لشك– أن هذه النظرية عربية المنشأ، وإن اختلف مسماها عند علماء اللغة المحدثين.

ولأئمة الأصول –في مصنفاتهم– إشارات مهمة تبرز دور السياق في التعامل مع النصوص الشرعية. من تلك الإشارات: إشارة الإمام السرخسي –رحمه الله– إلى دور السياق في تحديد درجة وضوح النص: «وَقَالَ بَعضهم: "النَّص يكون مُخْتَصًّا بِالسَّبَبِ الَّذِي كَانَ السِّيَاق لَهُ، فَلَا يثبت بِهِ مَا هُوَ مُوجب الظَّاهِر". وَلَيْسَ كَذَلِك عندنَا؛ فَإِن الْعبْرَة لعُمُوم الْخطاب لَا لخُصُوص السَّبَب عندنَا على مَا نبينه، فَيكون النَّص ظَاهرًا لصيغة الْخطاب نصًا بِاعْتِبَار الْقَرِينَة الَّتِي كَانَ السِّيَاق لأَجلهَا».[1]

---

[1] أصول السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (ت: ٤٨٣هـ) ، الناشر: دار المعرفة – بيروت ، عدد الأجزاء: ٢ (١/ ١٦٤).

ومنها: إشارة الإمام ابن دقيق العيد: «فإن السياق طريق إلى بيان المجملات وتعيين المحتملات وتنزيل الكلام على المقصود منه وفهم ذلك قاعدة كبيرة من قواعد أصول الفقه ولم أر من تعرض لها في أصول الفقه بالكلام عليها وتقرير قاعدتها مطولة إلا بعض المتأخرين ممن أدركنا أصحابهم وهي قاعدة متعينة على الناظر».[١]

والإمام اِبْن قَيِّمِ الجَوْزية أحد أئمة الأصول الذين كانوا على دراية تامة بأهمية السياق في التعامل مع النصوص الشرعية، وقد وقع الاختيار على شخصه من خلال كتابه (بدائع الفوائد)؛ لاستجلاء مكامن السياق عنده، وإثبات قدم السبق لعلماء العربية في هذه القضية.

ولقد حوى "بدائع الفوائد" ما يدلل على إدراك ابن القيم التام لأهمية السياق، خاصة عندما صرح بأن: «السياق يرشد إلى: تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة؛ وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم. فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته. فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[٢] كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير».[٣]

---

[١] إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد ، المحقق: مصطفى شيخ مصطفى و مدثر سندس، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م. (٨٢/٤).

[٢] الدخان: ٤٩ .

[٣] بدائع الفوائد: أَبو عَبْدِ اللَّهِ محمد ابْن قَيِّم الجَوْزِيَّةِ (٦٩١ - ٧٥١) ، ت: علي بن محمّد العمران ، (إشراف: بَكر بن عَبدِ اللَّهِ أَبُو زَيْد)، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٥ هـ.٩/٤، ١٠/٤.

هذه الإرشادات التي عددها ابن القيم أكدت مدى إدراكه لأهمية السياق في فهم النصوص الشرعية، ليس هذا فحسب، بل إنه أدرك –أيضًا– أهمية القرائن في جلاء المعنى، وذلك عندما قال: «إِنَّ اللَّفْظَ لَا بُدَّ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْمُرَادِ بِهِ. وَالْقَرَائِنُ ضَرْبَانِ: لَفْظِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ، وَاللَّفْظِيَّةُ نَوْعَانِ: مُتَّصِلَةٌ وَمُنْفَصِلَةٌ، وَالْمُتَّصِلَةُ ضَرْبَانِ: مُسْتَقِلَّةٌ وَغَيْرُ مُسْتَقِلَّةٍ، وَالْمَعْنَوِيَّةُ إِمَّا عَقْلِيَّةٌ وَإِمَّا عُرْفِيَّةٌ، وَالْعُرْفِيَّةُ إِمَّا عَامَّةٌ وَإِمَّا خَاصَّةٌ، وَتَارَةً يَكُونُ عُرْفَ الْمُتَكَلِّمِ وَعَادَتَهُ، وَتَارَةً عُرْفَ الْمُخَاطَبِ وَعَادَتَهُ».[1].

كما نجد من بين ما يدلل على إدراك ابن القيم التام لأهمية السياق في "بدائع الفوائد" قوله: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات؛ حتى يحيط به علمًا.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حُكْم الله الذي حَكَم به في كتابه أو على لسان رسوله –صلى الله عليه وسلم– في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر»[2].

والنص الأخير يؤكد مدى إدراك ابن القيم لأهمية السياق في الفتاوى واستنباط الأحكام.

---

[1] مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية، اختصره: شمس الدين ابن الموصلي (ت: ٧٧٤هـ)، تح: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر، ط١: ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.صـ ٢٣٤ .

[2] إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية، قدم له وعلق عليه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١: ١٤٢٣ هـ. ٢/ ١٦٥ .

بل إننا نستطيع أن نقرر أن ابن القيم قد سبق علماء اللغة المحدثين في أن تحديد المعنى لا يكون إلا من خلال السياق، وذلك بقوله: «تجرد اللفظ عن جميع القرائن الدالة على مراد المتكلم ممتنع»[١].

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة،وثبت بأهم المصادر والمراجع.

أما المقدمة فقد تحدثت فيها عن: أهمية الموضوع، وسبب اختياره، والمنهج الذي سرت عليه.

وأما التمهيد فقد تحدثت فيه عن التعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف[٢] .

وأما المبحثان فقد جاء الأول منهما بعنوان: السياق المقالي عند ابن القيم في "بدائع الفوائد"

وأما الثاني: فجاء بعنوان: السياق المقامي عند اِبْنِ القَيِّمِ في "بدائع الفوائد".

وأما الخاتمة فقد تناولت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

وفي الأخير ثبت بأهم المصادر والمراجع التي ساعدت في إتمام هذه الدراسة.

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية هذه الدراسة في تطبيقها على كتاب فريد يحتوى على ثروة لغوية قيمة، وهو لعالم جليل –الإمام ابن القيم– سجل فيه حضورًا واضحًا بدراسته الدقيقة والمتميزة، والتي ظهرت بوضوح من خلال توظيفه للسياق في توضيح الدلالة، واستنباط الأحكام وإصدار الفتاوى، فقد كان –رحمه الله– بارعًا في استخراج دقائق القرآن وأسراره باحتكامه للسياق. وسأقوم –بمشيئة الله– بتقييد المواضع التي استعان فيها ابن القيم بالسياق في ترجيح المعنى.

---

[١] بدائع الفوائد (٤/ ٢٠٤).

[٢] الإمام ابن القيم صاحب كتاب "بدائع الفوائد".

مشكلات البحث:

حاول البحث الإجابة عن عدد من الأسئلة، أهمها:

ما دور السياق في توجيه الدلالة؟ لماذا تنبّه علماؤنا القدامى إلى دور السياق في تبيان مقاصد الخطاب؟ ما الذي أضافه ابن القيم للبحث اللغوي؟ ما أوجه التلاقي بين فكر ابن القيم والدرس اللساني الحديث؟

منهج البحث:

مستعينة بالمنهج الوصفي الذي يعتمد على التحليل في عرض النماذج، وتقييمها، والتعقيب عليها، والكشف عن دور ابن القيم في الرصد والتحليل والاختيار.

الدراسات السابقة:

لم أعثر –فيما اطلعت عليه– على دراسة تتعلق مباشرة بالموضوع، لكن ألفيت دراسة موسومة، بابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن للدكتور عبد الفتاح لاشين، تناولت دور الكلمة في القرآن الكريم من خلال كتب ابن القيم.

وأخرى بعنوان: "دلالة السياق" لردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، وضح فيها مفهوم السياق في التراث العربي.

وإن كان ثمة أعمال بحثية أخرى تلامس –في ظاهرها– بحثي، من حيث اتصالها بابن القيم، أو بمؤلَّفه (محل الدراسة) بدائع الفوائد. أهم تلك الدراسات:

١- الأفعال الكلامية في كتاب "بدائع الفوائد" لابن قيم الجوزية – دراسة تداولية: بثية بن عيسى، بحث منشور في مجلة كلية الآداب واللغات – جامعة بكسرة بالجزائر، يونيو ٢٠٢٠م. وقد أصَّلت الباحثة في بحثها لنظرية "الأفعال الكلامية"، وأثبتت –من خلال كتابات ابن القيم في بدائع الفوائد– أن لتلك النظرية جذورًا في التراث العربي، تمثلت في تقسيمهم الأفعال الكلامية إلى ثلاثة أصناف: أفعال كلامية منبثقة عن "الخبر"، وأفعال كلامية منبثقة عن "الإنشاء"، وألفاظ "العقود والمعاهدات".

٢- السبك في "بدائع الفوائد" لابن قيم الجوزية (دراسة في ضوء علم اللغة النصي): مي عاطف عبد الرازق إسماعيل، رسالة دكتوراة مقدمة لمجلس كلية التربية – جامعة طنطا في العام ٢٠٢٠م. وقد عرضت فيها الباحثة لمعايير التفاعل بين المتكلمين، وخَصَّت من بينها بالبحث (السبك). لتثبت –بما ترك ابن القيم في "بدائع الفوائد"– أصالة كثير مما استجد من مصطلحات علم لغة النص، كالسبك والحبك والقصدية والمقبولية والتناص...إلخ.

٣- القضايا اللغوية لدى ابن قيم الجوزية – مقاربة لسانية لكتاب "بدائع الفوائد": نائبة لطروش، بحث منشور في مجلة الأدب العربي في العام ٢٠١٦م. وقد تطرقت الباحثة إلى الجهود النحوية والصرفية في "بدائع الفوائد"؛ من حيث كانت أكبر جهود ابن القيم في الكتاب، ومن القضايا التي تعرض لها: الاشتقاق، ونظرية العامل.

٤- جهود ابن القيم في الإعجاز اللغوي من خلال كتابه "بدائع الفوائد": رافع مصطفى، بحث منشور في مجلة "دراسات لسانية"، وقد أثبت صاحب البحث إسهامات ابن القيم في مجال الإعجاز اللغوي من خلال عرض نماذج في "بدائع الفوائد"، تشتمل على جوانب: الصوت والصرف والنحو.

٥- القضايا النحوية في بدائع الفوائد لابن القيم والكتب التي نقلت عنه بين الأصالة والادعاء: أحمد عطية المحمودي، بحث منشور في مجلة كلية الآداب – جامعة المنصورة، العدد ٢٥ أغسطس ١٩٩٩م. ويقع البحث في حوالي ستين صفحة. عرض فيها الباحث لعدد من القضايا النحوية تخللت "بدائع الفوائد".

٦- الدلالة اللغوية والنحوية في كتاب "بدائع الفوائد": حسام عبد علي الجمل، بحث منشور في مجلة الآداب بكلية الآداب – جامعة بغداد،

العدد ٩٠ في العام ٢٠٠٩م. ويقع البحث في حوالي أربعين صفحة. وقد تناول الباحث في بحثه هذا: تعريف الدلالة النحوية، ووضح علاقة النحو بالدلالة، وعرّج على آراء اللغويين –ممثلين في ابن القيم– في دلالات العلامة الإعرابية، ودورها في بيان المعنى.

٧- آراء ابن القيم اللغوية في بدائع الفوائد: عبد الله عبد ربه الذنبيات، رسالة ماجستير مقدمة لعمادة كلية الدراسات العليا بجامعة مؤتة بالأردن في العام ٢٠٠٨م. وتقع الرسالة في مائة وثلاث وأربعين صفحة. استقرأ فيها الباحث كثيرًا من آراء ابن القيم اللغوية في "بدائع الفوائد"، مبرزًا ما أبدعه من تلك الآراء وما قلّد فيه غيره.

وهذه الأبحاث –حسب ما يبدو من عناوينها، وما تَبيَّن من ملخص محتواها– لا تشترك مع بحثي في أيٍّ من أجزائه، اللهم إلا في أنها تبحث "ابن القيم" أو في مؤلفه "بدائع الفوائد"، أي أنها لا تلتقي مع بحثي إلا في حقل البحث (المؤلِّف أو المؤلَّف) ويبقى لبحثي خصيصته وميزته، المتمثلة في إفراده قضية السياق بالبحث واستفاضة الدراسة، في حين كان بعض تلك البحوث عامًّا في القضايا اللغوية، أو بعيدًا جدًّا عن محتوى بحثي، بانشغاله بقضايا نحوية وصرفية، أو إحدى نظريات علم اللغة النصي (السبك) أو (الأفعال الكلامية).

ولا يسعني في الأخير إلا أن أحمد الله –تعالى– على توفيقه لإتمام هذا العمل، سائلة الله أن ينفع به، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد

التعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف

أولًا: التعريف بالمؤلِّف:

ما من شك في أن أيَّ دراسة حول مؤلِّف ما؛ تستلزم أخذ صورة متكاملة عنه؛ لمعرفة مدى أوجه التأثير والتأثر التي مر بها في مراحل عمره المختلفة.

وفيما يلي رؤية موجزة بشخص العالم الجليل.

اسمه ولقبه:

مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَيُّوبَ بن سعد بن حريز الزُّرَعِيُّ[١]، الْفَقِيهُ الإِمَامُ الْمُفْتِي الْمُتَفَنِّنُ النَّحْوِيُّ، شَمْسُ الدِّينِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الدِّمَشْقِيُّ الحنبلي، إِمَامُ الْجَوْزِيَّةِ، وَابْنُ قَيِّمِهَا، صَاحِبِ الْمُصَنَّفَات الكثيرة النافعَةِ الكَافِيَةِ[٢].

- **سبب شهرته بـ "اِبْنِ قَيِّمِ الجَوْزية":**

اشتهر –بين أهل العلم– بـ "اِبْنِ قَيِّمِ الجَوْزية"؛ لأن والده –الإمام أبو بكر بن أيوب الزرعي– كان قيِّمًا على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن، فقيل له (قَيِّمِ الجَوْزية)[٣]، واشتهرت به ذريته وحفدتهم من بعد ذلك، فصار الواحد منهم يدعى بابن قيم الجوزية[٤].

---

(١) الزُّرَعِيُّ: بضم الزاي المشددة المعجمة، نسبة إلى زُرع بضم الزاي قرية من عمل حوران، "وحوران": ناحية واسعة كثيرة الخير بنواحي دمشق، ومنها يحصل غلات أهل دمشق وطعامهم. [الأنساب للسمعاني (٤/ ٣٠٣)].

(٢) الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي ، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٢٩. (٢/ ١٩٥)، والمعجم المختص بالمحدثين، للذهبي، (ص: ٢٦٩)، والبداية والنهاية لابن كثير: (١٤/٢٣٤).

(٣) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير، دار الفكر، عام النشر: ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦ م. (١٤/٦٥)، والدرر الكامنة لابن حجر، المحقق: مراقبة / محمد عبد المعيد ضان ، الناشر: ==

- **مولده ونشأته:**

حكت كتب التراجم أن ولادته كانت في اليوم السابع من شهر صفر سنة ٦٩١ هـ – ١٢٩٢م[١].وقد نشأ في جو يمتاز بالعلم والتقوى؛ فوالده "الشيخُ الصالح الْعابد النَّاسِك أَبو بَكْرِ بن أَيُّوبَ بن سعد الذرعى، قَيِّمُ الْجَوْزِيَّةِ، كَانَ رَجُلًا صَالِحًا مُتَعَبِّدًا قَلِيلَ التَّكَلُّفِ، وَكَانَ فَاضِلًا، وَقَدْ سَمِعَ شَيْئًا مِنْ دَلَائِلِ النبُوةِ عَنِ الرشِيدِي الْعَامِرِيِّ[٢]. كما كان كُلٌّ من جَدِّه وأخيه من أئمة الفقه الأفاضل.

- **علمه وثناء العلماء عليه:**

حين يُذكَر "ابْنُ القَيِّمِ" يتبادر إلى الذهن من اسمه أمور كثيرة، منها: مذهبه العقدي، آراؤه في الفقه وأصوله، ومصطلح الحديث، والتفسير، وعلم الكلام والعربية، وغيرها من المجالات الكثير والكثير؛ فهو –كما قال القاضي برهان الدين الزرعي– «ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه»[٣].

==

مجلس دائرة المعارف العثمانية – صيدر اباد/ الهند الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، عدد الأجزاء: ٦ ، (٤٧٢/١).

[٤] ينظر: ابن قيم الجوزية، حياته آثاره موارده لبكر بن عبدالله أبو زيد، ، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ط١: ١٤١٢م.صـ ٢٣.

[١] ينظر: الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (١٩٥/٢)، والدرر الكامنة لابن حجر (٨٧/٢).

[٢] البداية والنهاية ط الفكر (١٤/ ١١٠).

[٣] ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م، عدد الأجزاء: ٥. ١٧٤/٥.

وقال عنه الإمام السيوطي: «صنَّف، وناظر، واجتهد، وصار من الأئمة الكبار في التفسير، والحديث، والفروع، والأصلين، والعربية»[١].

وقال عنه ابن رجب الحنبلي: «تفقَّه فِي المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عَنْهُ، وتفنَّن فِي علوم الإسلام، وَكَانَ عارفًا بالتفسير لا يجارى فِيهِ، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، والحَدِيث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يُلحَق فِي ذَلِكَ، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وَلَهُ فِيهَا اليد الطولى، وتعلم الْكَلام والنحو، وغير ذَلِكَ، وكان عالما بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف، وإشاراتهم، ودقائقهم. لَهُ فِي كُل فن من هذه الفنون اليد الطولى»[٢].

كل هذه الأقوال ما هي إلا دليل على بيان المنزلة الرفيعة لهذا العالم الجليل، ووفرة علومه التي أتقنها وتفنن فيها.

خُلُقه:

أطبق مترجموه «على أنه كان حسن الخلق، لطيف المعاشرة، طيب السريرة، عالي الهمة، ثابت الجنان، واسع الأفق، معدودًا من الأكابر في السّمت والصلاح والعلم والفضائل والتهجُّد والتَّعبُّد»[٣].

- **شيوخه وتلاميذه:**

أولًا: شيوخه:

تلقى علومه على يد جمع غفير من كبار أهل العلم الذين كانوا لهم كبير الأثر في تكوينه الفكري ونبوغه العلمي، نذكر منهم:

---

[١] بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية –لبنان / صيدا. ٦٣/١.

[٢] ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي (٥/ ١٧١،١٧٢) .

[٣] ينظر: ابن قيم الجوزية، حياته آثاره موارده لبكر بن عبد الله أبو زيد، صـ ٣٤.

١- شيخ الإسلام "ابن تيمية"[١]:

لازمه الإمام سبعة عشر عامًا تقريبًا، منذ أن قَدِم ابن تيمية دمشق سنة ٧١٢هـ حتى توفى سنة ٧٢٨هـ، وأخذ عنه التفسير، والحديث، والفقه، والفرائض، والأصلين، وعلم الكلام[٢].

٢- المجد الحراني[٣]:

أخذ عنه الفرائض والفقه، وقرأ عليه: "مختصر أبي القاسم الخرقي[٤]"، وكتاب المقنع لابن قدامة، وأخذ عنه الأصول، وقرأ عليه أكثر الروضة[٥].

---

[١] ابْن تَيْمِية الشَّيْخ الإِمَام الْعَلامَة الْحَافِظ النَّاقِد الْفَقِيه الْمُجْتَهد الْمُفَسّر البارع شيخ الْإِسْلَام علم الزهاد نادرة الْعَصْر تَقِيّ الدّين أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد بن الْمُفْتِي شهَاب الدّين عبد الْحَلِيم ابْن الإِمَام الْمُجْتَهد شيخ الْإِسْلَام مجد الدّين عبد السَّلَام بن عبد الله بن أبي الْقَاسِم الْحَرَّانِي أحد الْأَعْلَام، ولد فِي ربيع الأول سنة إِحْدَى وَسِتِّينَ وسِتمِائَة، وَكَانَ من بحور الْعلم وَمن الأذكياء الْمَعْدُودين والزهاد والأفراد، ألف ثَلَاثمِائَة مجلدة، وامْتُحِن وأوذي مرَارًا. مَاتَ فِي الْعشْرين من ذِي الْقعدَة سنة ثَمَان وَعشْرين وَسَبْعمائة . [طبقات الحفاظ للسيوطي (ص : ٥٢١)].

[٢] الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (٢/ ١٩٥).

[٣] مجد الدين أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن الفرّاء الحرّاني ثم الدمشقي الفقيه الحنبلي، شيخ المذهب. ولد سنة خمس أو ست وأربعين وستمائة بحرّان. وقَدِم دمشق مع أهله سنة إحدى وسبعين، ت: (٧٢٩هـ). [شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح العكري الحنبلي، حققه: محمود الأرناؤوط ، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ١١. (٨/ ١٥٥)].

[٤] الخرقي هو: أبو القاسم عمر بن الحسين الحنبلي، توفي سنه (٣٣٤هـ). [ينظر: النجوم الزاهرة لابن تغري، صـ ٣٧٨].

[٥] الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (٢/ ١٩٥).

٣- ابن مفلح[١]:

كان الإمام –رحمه الله– يراجعه في كثير من مسائله واختياراته، وقال عنه: «ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح»[٢].

ثانيًا: تلاميذه:

أخذ عنه العلم جمع غفير من كبار العلماء، سأكتفي بذكر أشهرهم:

١- علاَّمة التفسير والفقه والحديث: الحافظ ابن كثير [٣]:

تتلمذ على ابن القيم، واعتز بصحبته، وقال فيها: «كُنْتُ مِنْ أَصْحَبِ النَّاسِ له وأحب الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم فِي زَمَانِنَا أَكْثَرَ عِبَادَةً مِنْهُ»[٤].

٢- **ابن رجب الحنبلي** [٥]:

صاحب المؤلفات القيّمة النافعة، ومنها كتاب "الذيل على طبقات الحنابلة "، «وفيه ترجم لشيخه ابن القيم ترجمة حافلة قال فيها»[٦]: «ولازمت مجالسه قبل

---

[١] هو: الشيخ الإمام العالم العلامة وحيد دهره، شيخ الإسلام، وأحد الأئمة الأعلام، أقضى القضاة؛ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن مفلح بن محمد ابن مفرج المقدسي ، ثم الصالحي الحنبلي . [جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (١/ ٤٧)].

[٢] نفسه .

[٣] إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين، حافظ مؤرخ فقيه. ولد في قرية من أعمال بصرى الشام، وانتقل مع أخ له إلى دمشق سنة ٧٠٦ هـ ورحل في طلب العلم. وتوفي بدمشق، (ت ٧٧٤هـ). [الأعلام للزركلي (١/ ٣٢٠)].

[٤] البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ٢٣٤) .

[٥] عبد الرحمن زين الدين أبو الفرج بن أحمد بن عبد الرحمن الملقب برجب الحنبلي، توفي سنه ٧٩٥هـ. [ينظر: شذرات الذهب لابن العماد (٣٣٩/٦)].

[٦] ابن قيم الجوزية، حياته آثاره موارده لبكر بن عبد الله أبو زيد، صـ ١٨٠.

موته أزيد من سنة، وسمعت عَلَيْهِ: "قصيدته النونية" الطويلة فِي السنة، وأشياء من تصانيفه، وغيرها. وأخذ عَنْهُ العلم خلق كثير من حياة شيخه وإلى أَن مَات، وانتفعوا بِهِ، وَكَانَ الفضلاء يعظمونه، ويتتلمذون لَهُ، كابن عَبْد الهادي وغيره ».[1]

آثاره العلمية:

خلَّف –رحمه الله– للمكتبة الإسلامية ثروة علمية كبيرة في مختلف العلوم اللغوية والشرعية، بلغ بها تلميذه ابن رجب –في كتابه "ذيل طبقات الحنابلة"[2]- أربعة وأربعين كتابًا. نذكر منها:

إعلام الموقعين عن رب العالمين (مطبوع).

بدائع الفوائد (مطبوع) .

تحفة المودود بأحكام المولود (مطبوع) .

زاد المعاد في هدي خير العباد (مطبوع) .

الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (مطبوع).

طريق الهجرتين وباب السعادتين (مطبوع) .

متن القصيدة النونية (مطبوع) .

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (مطبوع) .

مفتاح دار السعادة (مطبوع) .

المنار المنيف في الصحيح والضعيف (مطبوع) .

هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (مطبوع).

الوابل الصيب من الكلم الطيب (مطبوع).

منهجه في البحث والتأليف:

---

[1] ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي (٥/ ١٧٤) .

[2] نفسه (١٧٥/٥).

من يطالع مؤلفات الإمام الجليل يجدها تمتاز بالسعة والشمول، وهذه الخصيصة البارزة هى المِنَّة العلمية الكبرى التي امتن الله بها على ابن القيم؛ ذلك أنه إذا بحث مسألة من المسائل أو نازلة من النوازل؛ استوعب الكلام فيها من جميع جوانبها: بسياق الأقوال والآراء، وإبراز أدلتها، وبيان وجوه الاستدلال منها، ثم يُتبعها بمناقشتها، ثم ينتهى به المطاف إلى اختيار القول الذي يدعمه الدليل السالم من المعارض مويدًا له بما يسنده من وجوه الأدلة العقلية والنقلية. وهذا أسلوب موسوعي لا يطيقه إلا من كان على شاكلته رحمه الله تعالى[1].

وفاته:

توفي في ليلة الخميس ثالث عشر رجب وقت أذان العشاء سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ مِنَ الْغَدِ بِالْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ، وَدُفِنَ عِنْدَ وَالِدَتِهِ بِمَقَابِرِ الْبَابِ الصَّغِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُوَقَدْ كَانَتْ جَنَازَتُهُ حَافِلَةً، شَهِدَهَا الْقُضَاةُ وَالْأَعْيَانُ وَالصَّالِحُونَ مِنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ.[2]

---

[1] ابن قيم الجوزية، حياته آثاره موارده لبكر بن عبدالله أبو زيد، صـ ٩٤ .

[2] البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ٢٣٥). ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي (٥/ ١٧٦) .

ثانيًا: التعريف بالمؤلَّف

"بدائع الفوائد" أو "بديع الفوائد" –كما ذكر صاحب "كشف الظنون"[١]– كتاب كثير الفوائد، أكثر مسائله نحوية، يقع في أربعة أجزاء، في مجلدين، ويزيد عن ألف صفحة[٢]، وكتب ابن القيم غالبها من حفظه، حال بُعْدِه عن مكتبته، وقد أكد ذلك عندما قال في جواب السؤال العاشر على قولهم "هذا بسرًا أطيب منه رطبًا" : «فهذا ما في هذه المسألة المشكلة من الأسئلة والمباحث، علَّقتها صيدًا لسوانح الخاطر فيها؛ خشيةَ أن لا يعود، فلْيُسامح الناظرُ فيها؛ فإنها عُلِّقت على حين بُعْدي من كُتُبي، وعدم تمكُّني من مراجعتها، وهكذا غالب هذا التعليق إنما هو صيد خاطر. والله المستعان».[٣]

ولسوف يتضح –من خلال البحث– مدى تأثّر ابن القيم في "بدائع الفوائد" بالإمام السهيلي و كتابه"نتائج الفكر "، والسير على نهجه في العديد من المسائل.

---

[١]كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : مصطفى بن عبد الله المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة (المتوفى: ١٠٦٧هـ)، الناشر: مكتبة المثنى – بغداد (وصورتها عدة دور لبنانية، بنفس ترقيم صفحاتها، مثل: دار إحياء التراث العربي، ودار العلوم الحديثة، ودار الكتب العلمية)، تاريخ النشر: ١٩٤١م، عدد الأجزاء: ٢٣٠/٦١، ١٢٩/٢.

[٢] بغية الوعاه، السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية –لبنان / صيدا. ٦٢/١، ٦٣ .

[٣] بدائع الفوائد (٢/ ٥٩٢) .

المبحث الأول

السياق المقالي عند ابن القيم في "بدائع الفوائد"

توطئة:

تعريف السياق اللغوي:

عرّف "فيرث"سياق النص أو السياق اللغوي بأنه: «مجموعة الوظائف المستفادة من عناصر أداء المقال التي تحوزها الوحدة اللغوية أي الجملة»(١).

وقد زاد أولمان هذا التعريف وضوحًا عندما قال: «وكلمة "السياق" قد استعملت حديثًا في عدة معان مختلفة، والمعنى الوحيد الذي يَهُم مشكلتنا في الحقيقة هو معناها التقليدي، أي النظم اللفظي للكلمة، وموقعها من ذلك النظم بأوسع معاني هذه العبارة، أن السياق على هذا التفسير – ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب، بل والقطعة كلها، والكتاب كله»(٢).

نظرية السياق في التراث العربي:

يقصد بالسياق: «المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية –سواء أكانت كلمة أم جملة– في إطار من العناصر اللغوية أو غير اللغوية»(٣).

وقد أدرك علماؤنا القدامى هذا المعنى جيدًا، وتشهد مصنفاتهم بذلك؛ فالنظم، والتركيب، وشواهد الحال، والحضور، والمشاهدة، والسباق، واللحاق، والمقام، والقرائن، والموقف؛ كلها مسميات أدركها علماؤنا القدامى وأرادوا بها معنى السياق.

---

(١) دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق، د. عبد الفتاح البركاوي، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٩٩١م. صـ ٤٩ .

(٢) دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان، ت: د/ كمال محمد بشر.، عدد الأجزاء. ١.. ط. ١. بلد النشر. الأردن. صـ ٦٧ .

(٣) ينظر: دلالة السياق، ردة الله بن ضيف الطلحي، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٢٤هـ.صـ ٥١.

ولعل الإشارات الأولى في مراعاة المقام جاءت فى كتاب سيبويه؛ فهو – كما قال أستاذنا الدكتور البركاوي– «أسبق اللغويين –عربًا وغير عرب– الذين تنبهوا إلى ضرورة مراعاة السياق الخارجي عند الكشف عن المعنى العام للجملة أوالنص»(١).

يقول سيبويه في الكتاب: «ومن ذلك أيضًا: أن ترى رجلًا قد أوْقَعَ أمرًا أو تعرَّض لِه، فتقول: "متعرِّضًا لعنن لم تعنه"، أى دنا من هذا الأمر متعرِّضاً لعَنَن لم يَعنِه. وتَرَكَ ذكرَ الفعل لما يَرى من الحال. ومثله: "بَيْعَ المَلَطَى لا عهدَ ولا عقَدَ"، وذلك إنْ كنتَ فى حال مساومةٍ وحالِ بيعٍ، فتَدَعُ "أُبايِعُك" استغناءً لما فيه من الحال. ومثله: "مَواعيدَ عرقوبٍ أخاه بَيثْرِبِ"، كأَنه قال: واعَدْتَنى مَواعيدَ عرقوبٍ أخاه، ولكنه ترك "واعدتَنى" استغناءً بما هو فيه من ذكر الخُلْفِ، واكتفاءً بعلم من يعنى بما كان بينهما قبل ذلك»(٢).

ليس هذا فحسب؛ فما جاء به سيبويه –عند تقسيمه الكلام في "باب الاستقامة من الكلام والإحالة"– يؤكد مدى اعتماده على السياق؛ حيث قال: «فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: "أتيتك أمس وسآتيك غدًا". وأما المحال: فأن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: "أتيتك غدًا" و"سآتيك أمس". وأما المستقيم الكذب فقولك: "حملت الجبل"، و"شربت ماء البحر"، ونحوه. وأما المستقيم القبيح: فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: "قد زيدًا رأيت"، و"كي زيد يأتيك"، وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فأن تقول: "سوف أشرب ماء البحر أمس"»(٣).

---

(١) ينظر: دلالة السياق، أ. د. عبد الفتاح البركاوي: صـ ٥٨.

(٢) الكتاب لسيبويه، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط ٣، ١٩٨٨م. ١/ ٢٧٢.

(٣) نفسه ١/٢٥.

ومن اللغويين الذين أدركوا أهمية السياق الخارجي في الكشف عن المعنى: الإمام ابن جني، الذي كان على وعي تامّ بأن غياب هذا النوع يؤدي إلى الوقوع في الخطأ، وضرب لنا مثالًا يؤكد صحة ذلك حينما قال: «"رفع عقيرته": إذا رفع صوته ... وإنما هو أن رجلًا قُطِعَتْ إحدى رجليه، فرفعها ووضعها على الأخرى، ثم نادى وصرخ بأعلى صوته؛ فقال الناس: "رفع عقيرته"، أي: رجله المعقورة... ألا تستفيد –بتلك المشاهدة وذلك الحضور– ما لا تؤديه الحكايات، ولا تضبطه الروايات، فتضطر إلى قصود العرب، وغوامض ما في أنفسها، حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلَّتْهُ عليه إشارة –لا عبارة– لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقًا فيه غير مُتَّهَمِ الرأي والعقل؛ فهذا حديث ما غاب عنا، فلم ينقل إلينا، وكأنه حاضر معنا مناجٍ لنا»[1].

ويقول في موضع آخر، في معرض حديثه عن مسألة الحذف: «وقد حُذِفَت الصفة ودَلَّتْ الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب[2] من قولهم: "سِيرَ عليه ليل"، وهم يريدون: سِيرَ عليه ليل طويل، و كأن هذا إنما حذفت فيه الصفة؛ لِمَا دلَّ من الحال على موضعها، وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك –في التطويح و التطريح و التفخيم والتعظيم– ما يقوم مقام قوله: "طويل"، أو نحو ذلك. و أنت تحس هذا في نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه؛ فتقول: "كان و الله رجلًا"، فتزيد في قوة اللفظ بـ "الله" هذه الكلمة، و تَتمكّن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها، أي: رجلًا فاضلًا أو شجاعًا أو كريمًا أو نحو ذلك»[3].

---

[1] الخصائص أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة، عدد الأجزاء: ٣ ، ٢٦٢/١.

[2] الكتاب لسيبويه ٢٢٠/١.

[3] الخصائص لابن جني ٢/ ٢٥٢.

أما الإمام عبد القاهر الجرجاني فيُعدّ من أبرز البلاغيين الذين تنبَّهوا لفكرة السياق اللغوي، وذلك عندما ربط فصاحة الكلمة بالتركيب الذي وردت فيه، حيث قال: «وجملة الأمر أنّا لا نوجب "الفصاحة" للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلّقا معناها بمعنى ما يليها. فإذا قلنا في لفظة "اشتعل" من قوله تعالى: ((وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا))[1]، أنّها في أعلى رتبة من الفصاحة؛ لم تُوجَب تلك "الفصاحة" لها وحدها، ولكن موصولًا بها "الرأس" مُعرّفا بالألف واللام، ومقرونًا إليهما "الشيب" منكّرًا منصوبًا»[2].

أما فكرة المقام عند البلاغيين فقد تجلّت بوضوح في قول بشر بن المعتمر (٢٠١هـ) في صحيفته المشهورة: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات؛ فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا؛ حتى يُقسِّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويُقسِّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[3].

أما الأصوليون فقد كانوا أكثر إدراكًا لأهمية السياق بنوعيه، وما جاء به الإمام الشافعي يؤكد صحة ذلك، عندما قال: «إنما خاطب الله –بكتابه– العرب بلسانها على ماتعرف من معانيها، وكان ما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن فطرته أن يخاطب بالشئ منه عامًا ظاهرًا يراد به العام الظاهر، ويستغنى بأول هذا منه عن آخره، وعامًا ظاهرًا يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما

---

(١) سورة مريم : ٤ .

(٢) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ت: ياسين الأيوبي، الناشر: المكتبة العصرية– الدار النموذجية، الطبعة: الأولى ، عدد الاجزاء: ١، (ص: ٢٥٧) .

(٣) البيان والتبين، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣ هـ، عدد الأجزاء: ٣ ، ١٣١/١.

خوطب به فيه، وعامًا ظاهرًا يُراد به الخاص، وظاهرًا يُعرَف فى سياقه أنه يراد به غير ظاهره؛ فكل هذا موجود فى أول الكلام أو وسطه أو آخره»[١].

ومع اهتمام علمائنا القدامى –على اختلاف مشاربهم– بفكرة السياق؛ يبقى لابن القيم انفرادته المتميزة في هذه النظرية؛ إذ إن هذه فكرة لم تكن لتغيب عن عالمنا الجليل الإمام ابن القيم، الذي اعتمد عليه كثيرًا، واتخذه وسيلة أساسية لفهم نصوص الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة، وفي أكثر من موضع وجدناه يؤكد على أهمية القرائن اللفظية، التي ترادف عنده القرائن المقالية.

ومن المواضع التي برز فيها السياق عند ابن القيم:

قوله: «إنَّ اللَّفْظَ لَا بُدَّ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ مَا يدل عَلَى الْمُرَادِ بِهِ، وَالْقَرَائِن ضَرْبَانِ: لَفْظِية وَمَعْنَوِية، وَاللَّفْظِية نَوْعَانِ: مُتَّصِلَةٌ وَمُنْفَصِلَةٌ، وَالْمُتَّصِلَةُ ضَرْبَانِ: مستقلة وَغَيْرُ مُسْتَقِلَّةٍ»[٢].

وفي موضع آخر يؤكد على أهمية هذه القرينة بقوله: «مِنَ الْقَرَائِنِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَفْظِيًّا كَمُخَصَّصَاتِ الْأَعْدَادِ وَغَيْرِهَا»[٣].

كما جاء في نونيته ما يؤكد مدى وَعْيِهُ بأهمية السياق في توضيح المعنى. قال:[٤]

وأصـــخ لفائـــدة جليـــل قـــدرها تهـــديك للتحقيـــق والعرفـــان

إن الكـــلام إذا أتـــى بســـياقه يبـــدي المـــراد لمـــن لـــه أذنـــان

---

[١] الرسالة : محمد بن إدريس الشافعي، المحقق : أحمد محمد شاكر، الناشر : دار الكتب العلمية، عدد الأجزاء : ١، صـ ٥٢ .

[٢] مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم (ص: ٣٢٤) .

[٣] نفسه: (ص: ١٠٣).

[٤] نونية ابن القيم = الكافية الشافية، الناشر : مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة : الثانية، ١٤١٧هـ، (ص: ٧٤) .

أضـــحى كـــنص قـــاطع لا يقبـــل التأويـــل يعـــرف ذا أولـــو الأذهـــان
فســـياقة الألفـــاظ مثـــل شـــواهد ال أحـــوال إنهمـــا لنـــا صـــنوان
إحـــداهما للعـــين مشـــهود بهـــا لكـــن ذاك لمســـمع الإنســـان
فـــإذا أتـــى التأويـــل بعـــد ســـياقة تبـــدي المـــراد أتـــى علـــى اســـتهجان
وإذا أتـــى الكتمـــان بعـــد شـــواهد ال أحـــوال كـــان كـــأقبح الكتمـــان
فتأمـــل الألفـــاظ وانظـــر مـــا الـــذي ســـيقت لـــه إن كنـــت ذا عرفـــان

ويرى ابن القيم أن القرينة المقالية أكمل من القرينة الحالية، يقول: «وأدلة القرآن في أعلى مراتب الأدلة وأشدها ارتباطا بمدلولها واستلزاما له... فدلالة المقال أكمل من دلالة الحال، ودلالة الحال المعينة أكمل من الدلالة الكلية المنطقية، ودلالة كلام الله أكمل من دلالة كل كلام»[١] .

ثم يؤكد صحة ما ذهب إليه في هذا التصور الرائع لكيفية امتداد السياق على مستوى النص؛ فيقول «فإنَّ كلَّ جملةٍ مفيدةٌ لمعناها وحكمها وسببها وغايتها، منفردةً به عن الجملة الأخرى، واشتراكهما في مجرَّد العطف لا يوجب اشتراكهما فيما وراءه، وإنما يشترك حرف العطف في المعنى إذا عطف مفردًا على مفردٍ، فإنه يشترك بينهما في العامل، كـ "قام زيدٌ وعمرٌو" وأما نحو: "اقتل زيدًا وأكرم بكرًا" فلا اشتراك في معنى. وأبعد من ذلك: ظنُّ من ظنَّ أنَّ تقييد الجملة السَّابقة بظرفٍ أو حالٍ أو مجرورٍ يستلزم تقييد الثانية، وهذا دعوى مجرَّدةٌ بل فاسدةٌ قطعًا، ومن تأمَّل تراكيب الكلام العربيّ جزم ببطلانها»[٢].

---

[١] الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة لابن القيم (٢/ ٧٦٥) .

[٢] بدائع الفوائد (٤/ ١٦٢٨) .

وسوف يتضح هذا الكلام أكثر خلال هذا المبحث، باستعراض بعض النماذج التي تتعلق بالحذف، ويتجلى فيها أثر السياق اللغوي في ترجيح المعنى عند ابن القيم في "بدائع الفوائد".

أولًا: الحذف:

الحذف سنة من سنن العرب، تحدث عنه علماء العربية[١]، وأرجعوه إلى العديد من الأسباب، كالاختصار والتفخيم وغيرها. وما يهمنا من هذه الأسباب هو اشتراطهم – كما ذكر الإمام الزركشي رحمه الله (ت ٧٩٤هـ): «أن تكون في المذكور دلالة على المحذوف، إما من لفظه أو من سياقه؛ وإلا لم يتمكن من معرفته، فيصير اللفظ مُخِلًّا بالفهم، ولئلا يصير الكلام لُغْزًا فيهج في الفصاحة ... وتلك الدلالة: مقالية، وحالية»[٢].

وفي هذا –أيضًا– يقول العز بن عبد السلام رحمه الله: «والعرب لا يحذفون ما لا دلالة عليه، ولا وصلة إليه؛ لأن حذف ما لا دلالة عليه مُنافٍ لغرض وضع الكلام من الإفادة والإفهام، وفائدة الحذف: تقليل الكلام، وتقريب معانيه إلى الأفهام»[٣].

وابن القيم –رحمه الله– أدرك أهمية السياق في بيان المحذوف، وتقديره بما يناسب اللفظ، وقد تجلى ذلك في تطبيقاته لهذا الأمر في "بدائع الفوائد".

---

[١] ينظر: الكتاب، سيبويه، ٢٨١/١ وما بعدها، و شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام، صـ ٩٤.

[٢] البرهان في علوم القرآن لأبي عبد الله بدر الدين محمد الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، بيروت، د. ت.(٣/ ١١١) .

[٣] الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، صـ٢.

ومن أنواع الحذف التي تعرض لها ابن القيم: حذف الفعل، والفاعل، والمفعول، والموصوف، والمضاف، وغيرها من أنواع الحذف التي احتكم فيها إلى السياق، وأكد ذلك بالقرينة التي تدل عليه. من ذلك:

حذف الفعل. ومنه:

- ما جاء في تفسيره اللغوي لقوله تعالى:﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[1].

حيث قال: «لحذف العامل في "بسم الله" فوائد عديدة. منها: أنَّه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله، فلو ذكرت الفعل –وهو لا يستغني عن فاعله– كان ذلك مناقضًا للمقصود، وكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعني؛ ليكون المبدوء به اسم الله، كما تقول في الصلاة: "الله أكبر"، ومعناه: من كل شيءٍ، ولكن لا تقول هذا المقَدَّر؛ ليكون اللفظ في اللسان مطابقًا لمقصود الجنان، وهو: أن لا يكون في القلب إلا الله وحده، فكما تجرَّد ذكره في قلب المصلِّي تجرَّدَ ذكره في لسانه. ومنها: أن الفعل إذا حُذف صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة، وليس فِعْل أولى بها من فِعْل؛ فكان الحذف أعم من الذِّكر، فإنّ أي فعل ذكرته كان المحذوف أعم منه. ومنها: أنَّ الحذف أبلغ؛ لأنَّ المتكلم بهذه الكلمة كأنه يدّعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل، فكأنه لا حاجة إلى النطق به؛ لأنّ المشاهدة والحال دالَّة على أن هذا الفعل وكُلُّ فعل فإنّما هو باسمه تبارك وتعالى، والحَوَالة على شاهد الحال أبلغ من الحَوَالة على شاهد النطق»[2].

ويتضح –بما أشار إليه ابن القيم من خلال هذا النص – أثر السياق في تقدير الفعل المحذوف "أبتدئ" في البسملة، ودوره في تأدية المعنى؛ فالحذف صوَّر المعنى ووضَّحه بتلاحم اللفظ ومشاكلته للمعنى؛ لأنه ركَّز على قرينة السياق التى تمثلت في حذف الفعل.

---

[1] الفاتحة: ١ .

[2] بدائع الفوائد (١/ ٤٣) .

وقد أرجع ابن القيم فوائد الحذف لعدة أمور:

- أن ذكر الفعل في هذا الموطن مناقض للمقصود، لأنَّه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله، فكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعني، ليكون المبدوء به اسم الله.
- الفعل إذا حُذف صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة، فليس فِعْل أولى بها من فِعْل؛ فكان الحذف أعم من الذِّكر وأبلغ.
- الحَوَالة على شاهد الحال أبلغ من الحَوَالة على شاهد النطق، فكان الحذف أبلغ؛ للاستغناء بالمشاهدة على نطق الفعل، فكأنه لا حاجة إلى النطق به؛ لأنّ المشاهدة والحال دالّان على أن هذا الفعل وكُلَّ فعل إنّما هو باسمه تبارك وتعالى.

وما ذهب إليه ابن القيم –من ذكره لفوائد الحذف في هذا الموطن– سبقه إليه الإمام السهيلي في "نتائج الفكر"؛ حيث قال: «إنه موطن ينبغي أن لا يقدم فيه سوى ذكر الله تعالى، فلو ذكر الفعل –لا سيما وهو لا يستغني عن فاعله– كان ذلك مناقضًا للمقصود، فكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى، كما تقول في الصلاة: "الله أكبر"، ومعناه: من كل شيء، ولكن لا تقوله؛ ليكون اللفظ في اللسان مطابقًا لمقصود الجنان، وهو أن لا يكون في القلب ذكر إلا لله وحده. وفائدة أخرى في حذف الفعل: وهو أن إضمار الفعل وحذفه أكثر ما يكون في الأمر نحو: "إياك والطريق"، (الطريق) ونحو ذلك. والمتكلم بـ (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) هو الله سبحانه، وهو أمر عبادة بالابتداء بها في كل سورة من القرآن. وفائدة ثالثة: وهو أنه إذا حذف الفعل صلح الابتداء في كل عمل أو شغل فليس فعل أولى بها من

فعل؛ فكان الحذف أعم من الذكر وأبلغ، (مع) الاستغناء عنه بالمشاهدة والله – سبحانه – أعلم»[1].

وإن كان ثمة فارق بين ابن القيم وسابقه "السهيلي"؛ فإنه يتمثل في أن السهيلي قد وضح –خلال هذا النص– علة أخرى للحذف، لم يشر إليها ابن القيم وهي: أن إضمار الفعل وحذفه أكثر ما يكون في الأمر، نحو: "إياك والطريق"، (الطريق) ونحو ذلك. والمتكلم بـ (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) هو الله سبحانه وتعالى، وهو أمر عبادة بالابتداء بها في كل سورة من القرآن.

وقد سبق الإمام الزجاج –رحمه الله –(ت٣١١هـ) كلًّا من السهيلي وابن القيم؛ في بيان سياق الحذف في هذه الآية الكريمة، غير أنه أرجع الحذف إلى علة واحدة، هي الإيجاز والاختصار؛ فحذف الفعل هنا –كما ذكر الزجاج– جاء على سنن كلام العرب من الإيجاز والاختصار ؛ لعلم المخاطب بحذف ما دل عليه الدليل، ولم يذكر الزجاج –بجانب هذه العلة– العلل اللطيفة التى التمسها كلٌّ من الإمام السهيلي وابن القيم.

يقول الإمام الزجاج في توضيحه لسياق الحذف في هذه الآيه: «فإن قال قائ ولِمَ ابتدئ بالباء، وهى حرف، والحروف لا يبتدأ بها، لا تقل: "لعمرو"، و"من عمر"؛ حتى تذكر شيئًا يتعلق به الحرف؟ فالجواب في ذلك: أن قبل الباء فعلًا مقدرًا مضمرًا يتعلق به الباء، فإن قال قائل: وما هو؟ فالجواب: أن الفعل (أبدأ) بسم الله. فإن قال أتُضمِر في كل معنى فعلًا واحدًا أو أفعالًا مختلفة؟ ففى ذلك جوابان :أحدهما: أن تُضْمِر لكل معنى فعلًا يشاكله، فإذا أردت القيام أضمرت "أقوم" بسم الله، وإذ أردت القعود أضمرت "أقعد" بسم الله، وكذلك الركوب وغيره. والجواب الآخر: أن تضمر "أبدأ" فى كل معنى؛ لأنه تجري المعانى كلها عليه.

---

[1] نتائج الفكر في النَّحو لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، دار الكتب العلمية –بيروت، ط:١، ١٤١٢ – ١٩٩٢ م. ١/ ٤٤.

فتقول عند كل مأكل ومشرب وملبس ومركب :"أبدأ بسم الله"؛ فهذا قول الحُذَّاق من النحويين البصريين والكوفيين».[١]

وقال –أيضًا– في علة الحذف التي أرجعها –كماسبق وذكرت– إلى الإيجاز والاختصار؛ لعلم المخاطب بحذف ما دل عليه الدليل: «فإن قال قائل :لم حذفت الفعل، ولم تذكره؟ فالجواب فى ذلك: أن من شأن العرب الإيجاز والاختصار وحذف الفعل إذا كان فيما بَقِيَ دليل على ما أُلْقِي. فمن ذلك: ما قال سيبويه أنك إذا رأيت رجلًا فى هيئة الحاج قلت: "مكة والله" أضمرت: تريد مكة. أو رأيت رجلاً قد سدَّد نحو القرطاس سهمًا، ثم سمعت وقعًا: "القرطاس والله" أى أصاب القرطاس. أو كنت على الطريق فاعترضك معترض فقلت: "الطريق" –أضمرت: "خلِّ الطريق". ومن ذلك قولهم: "بالله" و"والله"، و"تالله" في اليمين. معناه: أحلف بالله، والواو بدل من الباء، والتاء بدل من الواو. وليس هذا موضع ذكره . والإضمار –لعلم المخاطب– كثير . وكذلك لما قلت: "بسم الله"؛ عُلِم أنك قد أضمرت فعلًا، واجتزأت بهذا الابتداء عنه»[٢].

مما سبق يتضح:

- لم يخرج ابن القيم عن نهج الإمام السهيلي في الرأي والتحليل في بيان المحذوف، وذكر علل الحذف في الآية السابقة.
- حذف الفعل للإيجاز والاختصار من سنن كلام العرب؛ لعلم المخاطب بحذف ما دل عليه الدليل.
- دلالة الحذف في الآية اشتملت على القرينتين معًا: المقالية والحاليَّة. وقد أشرنا إلى العِلَل المقالية، أما الحاليَّة فقد تمثلت في قول ابن القيم:

---

[١] أربع رسائل في النحو، حققها وعلق عليها، د. عبد الفتاح السيد سليم، مكتبة الأداب ، صـ ١٦.

[٢] أربع رسائل في النحو، صـ ١٧ .

«الحذف أبلغ؛ لأنَّ المتكلم بهذه الكلمة كأنه يدّعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل، فكأنه لا حاجة إلى النطق به؛ لأنّ المشاهدة والحال دالة على أن هذا الفعل».

١- حذف الموصوف. ومنه:

- ما جاء في تفسيره اللغوي لقوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾[(١)]

يقول ابن القيم رحمه الله: «"الوسواس" و"الخناس" وصفان لموصوف محذوف، وهو الشيطان، وحَسَّن حذف الموصوف -هاهنا- غلبة الوصف حتى صار كالعلم عليه، والموصوف إنما يقبح حذفه إذا كان الوصف مشتركًا؛ فيقع اللبس، كالطويل والقبيح والحسن ونحوه. فيتعين ذكر الموصوف؛ لِيُعْلَم أن الصفة له لا لغيره، فأما إذا غلب الوصف واختص ولم يعرض فيه اشتراك؛ فإنه يجري مجرى الاسم، ويحسن حذف الموصوف، كالمسلم والكافر والبر والفاجر والقاصي والداني والشاهد والوالي ونحو ذلك؛ فحذف الموصوف هنا أحسن من ذكره. وهذا التفصيل أولى من إطلاق مَن منع حذف الموصوف، ولم يُفصِّل. ومما يدل على أن "الوسواس" وصف لا مصدر: أن الوصفية أغلب على فعلال من المصدرية»[(٢)].

أدرك ابن القيم -من خلال هذا النص- أثر السياق في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، وأرجع علة الحذف إلى غلَبة الوصف على الشيطان حتى صار

---

(١) الناس: ٤.

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٤).

كالعلم عليه؛ فالقرينة هنا مقالية لغلبة الوصف، ولأن باقي صفاته ظهرت في السياق بعد ذلك: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾[1].

وقد أشار ابن القيم إلى أن حذف الموصوف ليس جائزًا على إطلاقه، ولا يحسن في كل كلام ، وإنما يكون ذلك بشرطين:[2]

الأول: أن تكون الصفة خاصة، يعلم ثبوتها لذلك الموصوف بعينه لا لغيره، كالآية التي معنا[3].

الثاني: أن تكون الصفة قد غلب استعمالها مفردة على الموصوف، كالبر والفاجر والعالم والجاهل والمتقي والرسول والنبي، ونحو ذلك مما غلب استعمال الصفة فيه مجردة عن الموصوف، فلا يكاد يجيئ ذكر الموصوف معها، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ، وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [4] وقوله:﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[5] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾[6] وقولـــــه: ﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [7] وهو كثير جدا في القرآن وكلام العرب.وبدون ذلك لا يحسن الاقتصار على الصفة، فلا يحسن أن تقول: "جاءني طويل" ور"أيت جميلًا" أو

---

(١) الناس: ٥.

(٢) بدائع الفوائد ٨٧٥/٣.

(٣) مراده بالآية: قوله تعالى: ((ک گ گ گ)) .

(٤) الانفطار : ١٣، ١٤.

(٥) الذرايات : ١٥ .

(٦) الأحزاب : ٣٥ .

(٧) البقرة : ٢٥٤ .

"قبيحاً" وأنت تريد: "جاءني رجل طويل"، و"رأيت رجلًا جميلًا" أو "قبيحا"، ولا تقول: "سكنت في قريب" تريد: "في مكان قريب" مع دلالة السكنى على المكان"[١].

وقد ذهب أئمة اللغة والتفسير –ممن سبق ابن القيم ومن لحقه– إلى ما ذهب إليه من شروط لحذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه.

يقول الإمام الزركشي رحمه الله: «حَذْفُ الْمَوْصُوفِ، يُشْتَرَطُ فِيهِ أَمْرَانِ :

أَحَدُهُمَا: كَوْنُ الصِّفَةِ خَاصَّةً بِالْمَوْصُوفِ؛ حَتَّى يَحْصُلَ الْعِلْمُ بِالْمَوْصُوفِ، فَمَتَى كَانَتِ الصِّفَةُ عَامَّةً امْتَنَعَ حَذْفُ الْمَوْصُوفِ.

الثَّانِي: أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى مُجَرَّدِ الصِّفَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ؛ لِتَعَلُّقِ غَرَضِ السياق، كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [٢]، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾»[٣] [٤].

مما سبق يتضح:

- حذف الموصوف لا يصلح في كل موضع، ولا يحسن في كل كلام، وإنما يكون ذلك في مقامات[٥].
- يتعين ذكر الموصوف إذا كانت الصفة مشتركة، كالطويل، والقبيح، والحسن، ونحو ذلك؛ لِيُعْلَم أن الصفة له لا لغيره.
- يَحسُن حذف الموصوف إذا كانت الصفة غالبة عليه، كالمسلم ، والكافر ، والبر ، والفاجر ، والقاصي، والداني، والشاهد، والوالي، ونحو ذلك.

---

[١] المصدر نفسه .

[٢] آل عمران : ١١٥، والتوبة : ٤٤ .

[٣] البقرة: ٩٥، ٢٤٦، والتوبة: ٤٧، والجمعة: ٧ .

[٤] البرهان في علوم القرآن ٣/ ١٥٤ .

[٥] ينظر: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان ، ط١.
ص ٩٠.

- مقامات حذف الموصوف متفق عليها من أئمة اللغة والتفسير، وفي غير ذلك يوهن الحذف.

٢- حذف الخبر. ومنه:

ما جاء في تفسيره اللغوي لقوله تعالى:- ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١].

يقول ابن القيم -رحمه الله- في المسلك السادس في هذه الآية: «إن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الآخر؛ لكونه تَبعًا له ومعنًى من معانيه، فإذا ذُكر أغنى عن ذكره؛ لأنه يُفهم منه... فعلى هذا يكون الأصل في الآية: "إنَّ الله قَرِيبٌ من المُحْسِنينَ، وإن رحمةَ اللهِ قريبةٌ من المُحْسِنين"، فاستغنى بخبرِ المحذوف عن خبر الموجود، وسَوَّغَ ذلك ظهورُ المعنى»[٢].

أدرك ابن القيم -من خلال هذا النص- أثر السياق في الاستغناء عن الخبر الأول بالثاني لدلالته عليه، ولكونه تَبعًا له ومعنًى من معانيه، فذِكْرُ الثاني أغنى عن ذكره؛ لأنه يُفهم منه، فالقرينة هنا مقالية لظهور المعنى في الجملة الثانية.

وعلى هذا يكون التعبير البديل: "إن الله قريب من المحسنين، وإن رحمة الله قريبة من المحسنين"؛ ففيه جملتان مكونتان من مسند إليه ومسند "إن الله قريب" و"إن رحمة الله قريبة"، بينما الآية القرآنية جملة واحدة "إن رحمة الله قريب". فاستغنى بخبر المحذوف "قريب" -وهو خبر عن لفظ الجلالة "الله" المحذوف- عن خبر الموجود "قريبة"، وهي خبر عن "رحمة الله" المذكورة "[٣]، والذي وضَّح ذلك وبيَّنه هو السياق.

---

[١] الأعراف : ٥٦ .

[٢] بدائع الفوائد (٣/ ٨٨١) .

[٣] ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، صـ ٩٢.

وقد أكد ابن القيم على حسن هذا المسلك أكثر من مرة، حيث قال: «وهذا المسلكُ مسلكٌ حَسَنٌ إذا كُسِي تعبيرًا أحسنَ من هذا، وهو مسلكٌ لطيفٌ المَنْزِع دقيقٌ على الأفهام، وهو من أسرار القرآن».(١)

وقال -أيضًا- في نهاية هذا المسلك: «فلا تستهِنْ بهذا المسلك؛ فإنَّ له شأنًا، وهو متضمِّنٌ لسِرٍّ بديع من أسرار الكتاب، وما أظنُّ صاحبَ هذا المسلكِ قَصَدَ هذا المعنىَ ولا أَلَمَّ به، وإنما أراد أن الإخبار عن قُرْبِه تعالى من المحسنين كافٍ عن الإخبار عن قُرْب رحمته منهم»(٢).

وقد وضّح هذا المسلك وبيَّن قربه من الأفهام بقوله: «والذي ينبغي أن يعَبَّرَ عنه به: أن "الرحمة" صِفَةٌ من صِفَات الرب تبارك وتعالى، والصِّفَةُ قائمة بالموصوف لا تفارِقُهُ؛ لأن الصفة لا تفارقُ موصوفَها، فإذا كانت "قريبةً من المُحسنين" فالموصوف تبارك وتعالى أولى بالقرب منه، بل قُرْبُ رحمته منه تَبَعٌ لقُرْبه هو تبارك وتعالى من المُحسنينَ. وقد تقدَّم في أوَّل الآية أن الله تبارك وتعالى قريبٌ من أهل الإحسان بإثابته، ومن أهل سؤاله بإجابته، وذكرنا شواهدَ ذلك، وأن الإحسانَ يقتضي قربَ الرَّبِّ من عبده، كما أن العبدَ قرُبَ من ربِّه بالإحسان، وأن من تَقَرَّبَ منه شِبرًا تقرَّب اللهُ منه ذراعًا، ومن تَقَرَّبَ منه ذراعًا تَقَرَّبَ منه باعًا، فالربُّ تبارك وتعالى قريبٌ من المحسنين، ورحمتُه قريبةٌ منهم، وقربُهُ يستلزمُ قربَ رحمته؛ ففي حذف التاء -هاهنا- تنبيهٌ على هذه الفائدة العظيمة الجليلة، وأن الله تعالى قريبٌ من المحسنين، وذلك يستلزمُ القُربين: قربَه وقربَ رحمته، ولو قال: "إن رحمةَ الله قريبةٌ من المحسنين"، لم يدُلَّ على قربه تعالى منهم؛ لأن قربَهُ تعالى

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٨٨٢) .

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٨٨٣) .

أخصُّ من قرب رحمته، والأعمُّ لا يستلزمُ الأخصَّ، بخلاف قربه، فإنه لما كان أخصَّ استلزمَ الأعمَّ، وهو قرب رحمته»[١].

وقد أشاد الدكتور"عبد الفتاح لاشين" ببلاغة هذا التوجيه الذي وجَّهَه ابن القيم في هذا المسلك، حيث قال: «وهذا التوجيه –الذي وجَّهَه ابن القيم في هذا المسلك– توجيه يدل على ما في القرآن الكريم من بلاغة الإيجاز التي هي سمة من سماته؛ فالرحمة صفة من صفات الرب، والصفة قائمة بالموصوف وملازمة له لا تفارقه، فإذا كانت هذه الصفة قريبة من المحسنين؛ فالموصوف –وهو الرب– أولى بالقرب»[٢].

وقال أيضًا: «وهذا ضرب من الإيجاز الذي امتاز به النظم في القرآن، والبلاغة الإيجاز، يسمى الاحتباك»[٣][٤].

مما سبق يتضح:

- مدى إدراك ابن القيم لأثر السياق في هذه الآية، فمن خلال شرحه وتحليله لهذه الآية ثبت لنا –بما لا يدع مجالًا للشك– مدى إدراكه لمفهوم السياق.

كما أن الحذف هنا –من أجل السياق– أزال اللبس والغموض في حذف التاء من لفظة "قريب"، ونبَّه على الفائدة العظيمة الجليلة، وهي

---

[١] نفسه ٣/ ٨٨٢ .

[٢] ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، صـ ٩٢.

[٣] الاحتباك: نوع من الإيجاز ، وهو أن يحذف من الأول ما ثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما ثبت نظيره في الأول، وهو مأخوذ من "الحبك"، الذي معناه الشد والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب . ينظر: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، صـ ٩٢.

[٤] المصدر نفسه.

أن الله تعالى قريبٌ من المحسنين، وذلك يستلزمُ القُربين: قربَه وقربَ رحمته، ولو قال: "إن رحمةَ الله قريبةٌ من المحسنين"لم يدُلَّ على قربه تعالى منهم؛ لأن قربَهُ تعالى أخصُّ من قرب رحمته، والأعمُّ لا يستلزمُ الأخصَّ، بخلاف قربه، فإنه لما كان أخصَّ استلزمَ الأعمَّ، وهو قرب رحمته[١].

- يحذف المسند عند وجود القرينة الدالّة على حذفه.
- يسوغ في كلام العرب ترك الخبر عن الأول والاستغناء عنه بالثاني لدلالته عليه.

٣- حذف الاستفهام اللفظي قبل "أم". ومنه:

- ما جاء في تفسيره اللغوي لقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾ [٢].

يقول ابن القيم رحمه الله: «وليس هذا استفهام استعلام، بل تقريع وتوبيخ وإنكار، وليس بإخبار؛ فهو -إذن- متضمِّن لاستفهام سابق، مدلول عليه بقوة الكلام وسياقه، ودلت "أم" عليه؛ لأنها لا تكون إلا بعد تقدم استفهام»[٣].

فالسياق هنا هو ما أرشد ابن القيم إلى أن المعنى «أحسبتم أن تدخلوا الجنة بغير جهاد فتكونوا جاهلين، أم لم تحسبوا ذلك فتكونوا مفرِّطين»[٤].

---

[١] ينظر: ٣/ ٨٨٢.

[٢] آل عمران :١٤٢ .

[٣] بدائع الفوائد ١/ ٢٠٧ .

[٤] المصدر نفسه ١/ ٣٦٠.

يقول: «وكذلك إذا قلت: "أم حسبت أن تنال العلم بغير جدٍّ واجتهاد" معناه: أحسبت أن تناله بالبطالة والهوينا فأنت جاهل، أم لم تحسب ذلك فأنت مفرِّط»(١).

وقد أكد لنا ابن القيم أن توصُّله للمحذوف –في الآية السابقة– كان بفضل السياق، يقول رحمه الله: «وهذا يظهر كلَّ الظهور فيما إذا كان الذي دخلت عليه "أم" له ضد، وقد حصل التردد بينهما، فإذا ذُكِرَ أحدهما استُغْني به عن ذكر الآخر؛ لأن الضد يخطر بالقلب وهو عند شعوره بضده»(٢).

وقد ذكر ابن القيم أن هذا الحذف كثير جدًا، قال: «وهو كثير جدًّا تَجِدُ فيه "أم" مبتدأً بها ليس قبلها استفهام في اللفظ، وليس هذا استفهام استعلام... كأنه يقول: "أيقولون: صادق أم يقولون: شاعر؟" وكذلك: { أَمْ يَقُولُونَ نَقَوَّلَهُۥ }(٣)، أي: أتصدقونه أم تقولون: تَقَوَّله؟ وكذلك { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ }(٤)، أي أَبَلَغَكَ خبرُهم أم حسبت أنهم من آياتنا عجبًا. وتأمل كيف تجد هذا المعنى باديًا على صفحات قوله تعالى: {مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ }(٥) كيف تجد المعنى: أحَضَرَ أم كان من الغائبين»(٦).

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٣٥٩ .

(٣) الطور: ٣٣.

(٤) الكهف : ٩ .

(٥) النمل : ٢٠ .

(٦) بدائع الفوائد (١/ ٣٥٩) .

ونجد الإمام ابن القيم –كعادته في معالجته لأغلب المسائل– متأثراً بالإمام السهيلي الذي سبقه إلى القول بأن "أم" إذا وُجِدت وليس قبلها استفهام في اللفظ؛ فهو متضمن في المعنى معلوم بقوة الكلام.

يقول الإمام السهيلي: «وهذه "أم" التي هي مَشُوبَة المعنى بالإضراب والاستفهام، ولا ينبغي أن تكون في القرآن، وإن كانت فعلى جهة التقرير، نحو قوله: { أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ }[1]. وأحسب جميع ما وقع منها في القرآن إنما هو على أصلها الأول من المعادلة. وإن لم يكن قبلها ألف استفهام، نحو قوله: {أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ }[2]، و{ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ }[3]؛ لأن القرآن كله مبني على تقريع الجاحدين وتبكيت المعاندين، وهو كله كلام واحد، كأنه معطوف بعضه على بعض؛ فإذا وجدت "أم" وليس قبلها استفهام في اللفظ؛ فهو متضمَّن في المعنى معلوم بقوة الكلام، كأنه يقول: "أتقولون كذا، أم تقولون كذا؟" و"أبلغك كذا أم حسبت أن الأمر كذا؟"»[4].

وقد أظهر ابن القيم مدى إعجابه واستحسانه لهذا الرأي؛ عندما بسط القول فيه في البدائع، حيث قال: «والحق أن يقال إنها على بابها وأصلها الأول من المعادلة والاستفهام حيث وقعت، وإن لم يكن قبلها أداة استفهام في اللفظ، وتقديرها بـ"بل"، والهمزة خارج عن أصول اللغة العربية؛ فإن "أم" للاستفهام و"بل" للإضراب، ويا بعد ما بينهما والحروف لا يقوم بعضها مقام بعض على أصح الطريقتين وهي طريقة إمام الصناعة والمحققين من أتباعه»[5].

---

[1] الزخرف: ٥٢.

[2] الطور: ٣٠.

[3] الكهف: ٩.

[4] نتائج الفكر في النحو للسهيلي ٢٦٠ .

[5] بدائع الفوائد : ٢٠٦/١ .

نخلص مما سبق إلى القول بأن ابن القيم قد توصل إلى المحذوف في هذه الآية عن طريق معرفة الشيء وضده، عندما قال: «وهذا يظهر -كلَّ الظهور- فيما إذا كان الذي دخلت عليه "أم" له ضد، وقد حصل التردُدُ بينهما، فإذا ذُكِرَ أحدهما استُغْني به عن ذكر الآخر؛ لأن الضد يخطر بالقلب وهو عند شعوره بضده»[1]، كما استدل على المحذوف بقوة الكلام وسياقه الذي دلت عليه "أم"؛ لأنها لا تكون إلا بعد تقدم استفهام.

كما نخلص -أيضًا- من جملة حديثنا عن الحذف إلى أن الحذف يتعدد ويتنوع بتعدد السياقات التي ورد فيها المحذوف؛ فقد يكون -كما ذكر ابن القيم- من أجل مشاكلة اللفظ للمعنى، أو اختصارًا لدلالة غيره عليه.

ونخلص -كذلك- إلى أن الحذف -من وجهة نظر ابن القيم- آلية من آليات تماسك النص، وتناسق بنائه.

٤- حذف الفاعل :

نقَّب ابن القيم -كثيرًا-عن السر في حذف الفاعل في العديد من الآيات القرآنية، وقد توصَّل إلى أن حذفه -في المقام الأول- يتعلَّق بأغراض ودلالات مرجعها إلى السياق الذي تَرِد فيه.

ومن هذه السياقات التي اقتضت حذفه: مجيئه مع أفعال العدل والجزاء والعقوبة؛ تأدبًا في الخطاب. من ذلك: ما أورده ابن القيم عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾[2].

في هذه الآية الكريمة أبان ابن القيم عن السر في ذكر الفاعل مع أهل النعمة، عندما قال سبحانه: {ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ}[3]، ولم يقل: "المُنْعَم عليهم"، كما أبان عن

---

(١) المصدر نفسه ١/ ٣٥٩ .

(٢) الفاتحة: ٧ .

(٣) الفاتحة: ٧.

سبب حذف الفاعل وبناء الفعل للمجهول في {ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ}[1]، وقد أرجع ذلك لفوائد عديدة:

«أحدها: أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن، وهي: أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى، فيَذْكر فاعلَها منسوبةً إليه ولا يَبْني الفعلَ معها للمفعول، فإذا جاء إلى أفعال العدل والجزاء والعقوبة؛ حَذَف الفاعل وبَنَى الفعلَ معها للمفعول؛ أدبًا في الخطاب، وإضافةً إلى الله أشرف قِسْمَي أفعاله، فمنه هذه الآية؛ فإنه لمَّا ذكر النعمةَ فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضبَ حذفَ الفاعل وبَنَى الفعل للمفعول، فقال: {ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ}، وقال في الإحسان: {ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ}»[2].

أرجع ابن القيم هذه الفائدة الأولى في إثبات الفاعل وحذفه في الآية السابقة إلى طريقة القرآن المعهودة في إضافة النعم إلى الله عز وجل، وفي هذا يقول الدكتور عبد الفتاح لاشين: «فقد أضيفت النعمة إلى الله تعالى؛ إذ هي فضل ورحمة، وصفة كمال وجمال؛ فأولى أن تنسب إليه سبحانه، وحذف –في مقابل ذلك– الفاعل في {ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ}؛حيث بنى الفعل للمجهول؛ لأن صفة الغضب بعيدة عن الكمال والجمال، فلم تُضَفْ إليه تعالى، وإسناد أكمل الأمرين إلى الله تعالى هي طريقة القرآن الكريم»[3].

وقد ساق ابن القيم العديد من الآيات القرآنية التي سارت على هذا النهج؛ ليؤكد صحة ما ذهب إليه، فقال: «ونظيره قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ

---

[1] الفاتحة: ٧.

[2] بدائع الفوائد (٢/ ٤٢٠).

[3] ينظر: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د/ عبد الفتاح لاشين ، صـ ٩٦.

﴿٨٠﴾ ﴾[1]؛ فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله، ولما جاء إلى ذكر المرض قال: {وَإِذَا مَرِضْتُ}ولم يقل: أمرضني، وقال: {فَهُوَ يَشْفِينِ}.

ومنه قوله تعالى حكايةً عن مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾[2] ، فنسبوا إرادة الرشد إلى الربِّ، وحذفوا فاعِلَ إرادة الشر، وبنوا الفعل للمفعول.

ومنه قول الخضر –عليه السلام– في السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾[3] فأضاف العيبَ إلى نفسه. وقال في الغلامين: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾[4].

ومنه قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾[5]، فحذف الفاعلَ وبناه للمفعول، وقال: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[6]؛ لأن في ذكر الرَّفَث ما يَحْسُن منه أن لا يقترن بالتصريح بالفاعل.

ومنه: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾[7]، وقوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾[8].

---

(١) الشعراء: ٧٨ – ٨٠ .

(٢) الجن: ١٠ .

(٣) الكهف : ٧٩ .

(٤) الكهف : ٨٢ .

(٥) البقرة: ١٨٧.

(٦) البقرة: ٢٧٥.

(٧) المائدة: ٣ .

(٨) الأنعام: ١٥١ .

ومنه –وهو ألطف من هذا وأدق معنى– قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾[1] ، ثم قال: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾[2].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾[3]؛ كيف صرَّح بفاعل التحريم في هذا الموضع، وقال في حق المؤمنين: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾»[4].

هذه الآيات –التي عددها ابن القيم– تؤكد مدى حرصه على إثبات صحة ما ذهب إليه، من أن المعهود في القرآن الكريم هو إضافة أفعال الإحسان والرحمة والجود إلى الله، سبحانه وتعالى، وعلى النقيض: عدم الإضافة مع أفعال العدل والجزاء والعقوبة؛ تأدبًا في الخطاب.

وقد استمد ابن القيم هذه العلة من الإمام "الزمخشري" في المثل السائر ، عندما قال: «وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة، ثم قال: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} عطفًا على الأول؛ لأن الأول موضع التقرّب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفًا عن ذكر الغاضب؛ فأسند النعمة إليه لفظًا، وزوى عنه لفظ الغضب؛ تَحَنُّنًا ولُطفًا. فانظر إلى هذا الموضع، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام لا تكاد تطؤها، والأفهام مع قربها صافحة عنها. وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب؛ لتعظيم شأن المخاطب، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة؛ لتلك العلة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضًا؛ لأن مخاطبة الربّ

---

(1) النساء: ٢٣ .

(2) النساء: ٢٤ .

(3) النساء: ١٦٠.

(4) الكهف: ٣ .

تبارك وتعالى –بإسناد النعمة إليه– تعظيم لخطابه، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه؛ تعظيم لخطابه»[١].

ومن الفوائد التي التمسها ابن القيم في إثبات الفاعل وحذفه في الآية السابقة: «أن النعمة بالهداية إلى الصراطِ للهِ وحده، وهو المنعِم بالهداية دون أن يشركه أحدٌ في نعمته، فاقتضى اختصاصه بها أن تضاف إليه بوصف الإفراد، فيقال: {أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ }، أي: أنت وحدَك المنعِم المحسِن المتفضِّل بهذه النعمة، وأما الغضب فإن الله –سبحانه– غَضِب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم، وذلك يستلزم غضبهم عليهم؛ مِوافقةً لغضبِ ربهمِ عليهم، فموافقته تعالى تقتضي أن يُغْضَب على من غَضِبَ عليه، ويُرْضى عمن رضي عنه، فيُغْضَب لغضبه ويُرْضَى لرضاه، وهذا حقيقة العبودية، واليهود قد غضبَ اللهُ عليهم، فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم، فحذف فاعل الغضب، وقال: {ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ } لمّا كان للمؤمنين نصيبٌ من غضبهم على من غضبَ اللهُ عليه، بخلاف الإنعام فإنه لله وحدَه»[٢].

هذه العلة –التي التمسها ابن القيم– توضّح مدى إحساسه الدقيق بمواقع الكلمات وإصابتها، وتفاعله الصادق مع ما تحتويه، فهو على حق فيما ذهب إليه؛ «فالله – سبحانه– هو المنفرد بالنعم ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾[٣]، فأضيف إليه ما هو منفرد به، وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقًا ومجرى للنعمة، وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه؛

---

[١] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير، تح: محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر –بيروت، عام النشر: ١٤٢٠ هـ. (٢/ ٥) .

[٢] بدائع الفوائد (٢/ ٤٢٢).

[٣] النحل: ٥٣ .

يغضبون لغضبه؛ فكان في لفظة {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} من الدلالة على تفرده بالإنعام، وأن النعمة المطلقه منه وحده، هو المنفرد بها، ما ليس في لفظة (المنعم عليهم)»[١].

وهناك فائدة أخرى –أشار إليها ابن القيم– هي: «أن المغضوب عليهم في مقام الإعراض عنهم، وترك الالتفات إليهم، والإشارة إلى نفس الصفة التي لهم، والاقتصار عليها. وأما أهل النعمة؛ فهم في مقام الإشارة إليهم، وتعيينهم، والإشادة بذكرهم؛ وإذا ثبت هذا فالألف واللام في "المغضوب" –وإن كانت بمعنى "الذين"– فليست مثل "الذين" في التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسَمَّى، فإن قولك: "الذين فعلوا"، معناه: القوم الذين فعلوا، وقولك: "الضاربون والمضروبون" ليس فيه ما في قولك: الذين ضَربوا أو ضُربوا. فتأمل ذلك. فـ "الذين أنعمتَ عليهم" إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقَصْد ذَوَاتهم، بخلاف "المغضوب عليهم"؛ فالمقصود: التحذير من صفتهم، والإعراض عنهم، وعدم الالتفات إليهم»[٢].

نلاحظ براعة ابن القيم من خلال هذه الفائدة الدقيقة التى ذكرها؛ فهو يرى «أن في حذف فاعل الغضب –من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره وتصغير شأنه– ما ليس في ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره ورفع قدره.فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرَّفه ورفع قدره، فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه، وأعطاه ما تمناه؛ كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أُكرم، وخُلِع عليه، وشُرِّف، وأُعْطِي»[٣].

---

[١] ينظر: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د/ عبد الفتاح لاشين ، صـ ٩٦.

[٢] بدائع الفوائد (٢/ ٤٢٢، ٤٢٣).

[٣] ينظر: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د/ عبد الفتاح لاشين ، صـ ٩٦.

وهكذا نجد ابن القيم يعلل حدوث حذف الفاعل أو إثباته –في قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾[1] - بحجج عقلية سلسة، ويؤكد على أن الحذف لم يُخِلّ بالمعنى، ولم يُنقِص من البلاغة ، بل زاده حسنًا وجمالًا وإبداعًا في توخّي المعنى.

[1] الفاتحة : ٦، ٧ .

المبحث الثاني

السياق المقامي عند اِبْنِ القَيّمِ "في بدائع الفوائد"

السياق المقامي أو "المسرح اللغوي" حسبما أطلق عليه الدكتور "كمال بشر"[١] هو: «جملة العناصر المكونّة للموقف الكلامي (أو للحال الكلامية). ومن هذه العناصر المكونة للحال الكلامية:

١- شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما "الثقافي"، وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع إن وُجدوا، وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، ودورهم: أيقتصر على "الشهود" أم يشاركون من آن لآن بالكلام؟ والنصوص الكلامية التي تصدر عنهم.

٢- العوامل والظروف الاجتماعية ذات العلاقة باللغة والسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي ... كالوضع السياسي، وكمكان الكلام.

و كل ما يطرأ أثناء الكلام ممن يشهد الموقف الكلامي، من: انفعال، أو أي ضرب من ضروب الاستجابة، وكل ما يتعلق بالموقف الكلامي، أيًا كانت درجة تعلقه.

٣- أثر النص الكلامي في المشتركين، كالإقناع، أو الألم، أو الإغراء أو الضحك.[٢].

هذا التصور الذي يقوم عليه "السياق المقامي" اهتدى إليه الأصوليون –وعلى رأسهم ابن القيم– منذ وقت مبكر؛ وليس أدل على ذلك من قوله الذي وضّح فيه

---

[١] دراسات في اللغة، د/ كمال محمد بشر، الناشر: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، صـ ٥٦.

[٢] علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د/ محمود السعران، دار النهضة العربيّة، بيروت، (د.ط).صـ ٣١١ .

أهمية العلاقة بين قصد المتكلم وفهم المخاطب، وما يصحب ذلك من قرائن حالية، حين قال: «فَمَنْ عَرَفَ مُرَادَ الْمُتَكَلِّمِ بِدَلِيلٍ مِنْ الْأَدِلَّةِ؛ وَجَبَ اتِّبَاعُ مُرَادِهِ. وَالْأَلْفَاظُ لَمْ تُقْصَدْ لِذَوَاتِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ أَدِلَّةٌ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ، فَإِذَا ظَهَرَ مُرَادُهُ، وَوَضَحَ بِأَيِّ طَرِيقٍ كَانَ؛ عَمَلٌ بِمُقْتَضَاهُ، سَوَاءٌ كَانَ بِإِشَارَةٍ، أَوْ كِتَابَةٍ، أَوْ بِإِيمَاءَةٍ أَوْ دَلَالَةٍ عَقْلِيَّةٍ، أَوْ قَرِينَةٍ حَالِيَّةٍ، أَوْ عَادَةٍ لَهُ مُطَّرِدَةٍ لَا يُخِلُّ بِهَا»[1].

كما أكد على أهمية وقوف المخاطب على العادات الخاصة بالمتكلم؛ من أجل الوصول إلى المقصد السليم من كلامه. يقول: «وكلما كان السامع أعرف بالمتكلم وصفاته وقصده وبيانه وعادته؛ كان استفادته للعلم بمراده أكمل وأتم»[2].

ليس هذا فحسب، فقد تنبّه –أيضًا– «لجملة العناصر المكوّنة للحال الكلامية، وهذا واضح في قوله: «فَاللَّفْظُ الْخَاصُّ قَدْ يَنْتَقِلُ إلَى مَعْنَى الْعُمُومِ بِالْإِرَادَةِ، وَالْعَامُّ قَدْ يَنْتَقِلُ إلَى الْخُصُوصِ بِالْإِرَادَةِ، فَإِذَا دُعِيَ إلَى غَدَاءٍ فَقَالَ: وَاَللَّهِ لَا أَتَغَدَّى، أَوْ قِيلَ لَهُ: "نَمْ " فَقَالَ: وَاَللَّهِ لَا أَنَامُ، أَوْ:"اشْرَبْ هَذَا الْمَاءَ" فَقَالَ: وَاَللَّهِ لَا أَشْرَبُ؛ فَهَذِهِ كُلُّهَا أَلْفَاظٌ عَامَّةٌ نُقِلَتْ إلَى مَعْنَى الْخُصُوصِ بِإِرَادَةِ الْمُتَكَلِّمِ الَّتِي يَقْطَعُ السَّامِعُ – عِنْدَ سَمَاعِهَا– بِأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ النَّفْيَ الْعَامَّ إلَى آخِرِ الْعُمْرِ، وَالْأَلْفَاظُ لَيْسَتْ تَعَبُّدِيَّةً، وَالْعَارِفُ يَقُولُ: مَاذَا أَرَادَ؟ وَاللَّفْظِيُّ يَقُولُ: مَاذَا قَالَ»[3].

كما كان له موقف واضح مع الذين وقفوا مع ظاهر النص ولم يراعوا المقاصد والمعاني؛ وذلك عندما قال: «وما مَثَلُ من وقف مع الظواهر والألفاظ ولم يُرَاعِ المقاصدَ والمعاني إلا كمَثَل رجل قيل له: "لا تُسلم على صاحب بِدْعَةٍ"؛ فقبَّلَ يده ورجله ولم يسلم عليه، أو قيل له: "اذهب فاملأ هذه الجُرَّة"، فذهب فملأها ثم تركها على الحوض وقال: لم تقل: ايتني بها"... وكمن قال: "والله لا أشرب هذا

---

[1] إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١/ ١٦٧) .

[2] الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة لابن القيم (٢/ ٧٤٤) .

[3] إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١/ ١٦٧) .

الشراب"، فجعله عقيدًا أو ثَرَدَ فيه خبزًا وأكله. ويلزم مَنْ وقف مع الظواهر والألفاظ أن لا يُحَدّ مَنْ فعل ذلك بالخمر، وقد أشار النبي – صلى الله عليه وسلم– إلى أن من الأُمّة مَنْ يتناول المحرم ويسميه بغير اسمه»[١].

ولكي تتضح أهمية هذا الجانب عند "ابن القيم" بصورة أكثر تفصيلًا؛ سوف أعرض –فيما يلي– أبرز تطبيقاته هذا الميدان:

أولًا: مراعاة المقام الاجتماعي حال الخطاب.

أعني بهذا المصطلح: مراعاة مقام المتكلم والمخاطب، كأنْ يكون الخطاب من الأدنى للأعلى، أو العكس، كخطاب أصحاب الطبقات الاجتماعية. وقد تحدّث ابن القيم في هذا الأمر، وكانت له وقفات كثيرة مع بعض الآيات التي نظر في معانيها، وبيّن مراعاة المقام فيها أثناء عملية التخاطب، منها:

- ما جاء في تعليقه على استخدام المتكلم في الصلاة "ضمير الجمع" في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [٢].

حيث ذكر أن الضمير في (اهدنا) جاء بصيغة الجمع؛ مطابقة لأعضاء العبد، وهي جمع؛ فيُصوّر الأعضاء في صورة من يطلب الهداية من الله تعالى.

يقول: «قال بعض الناس في جوابه: "إن كلَّ عضو من أعضاء العبد، وكلَّ حاسَّةٍ ظاهرة وباطنة؛ مفتقِرَة إلى هداية خاصة به، فأتى بصيغة الجمع؛ تنزيلًا لكلِّ عضو من أعضائه منزلة المسترشِد الطالب لهداه»[٣].

كما جاء عن ابن القيم نص آخر يؤكد أنه عالم متمرس خبر دقائق العلوم النفسية والاجتماعية اللغوية. نرى ذلك بوضوح عندما قال في تفسير قول الله

---

[١] نفسه (٤/ ٥٢٧) .

[٢] الفاتحة : ٦ .

[٣] بدائع الفوائد: ٤٥٢/٢. .

تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] حيث قال: «والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم؛ فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبودية، واستعانته وهدايته؛ فأتى فيه بصيغة ضمير الجمع. أي: نحن معاشر عبيدك، مُقِرُّون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظَّم شأنه: "نحن عبيدك ومماليكك، وتحت طاعتك، ولا نخالف أمرك"؛ فيكون هذا أحسن وأعظم موقعًا عند الملك من أن يقول: "أنا عبدك ومملوكك"، ولهذا لو قال: "أنا وحدي مملوكك"، استدعى مَقْته، فإذا قال: "أنا وكل من في البلد مماليكك وعبيدك وجُنْد لك"؛ كان أعظم وأفخم؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدًّا وأنا واحد منهم، فكلُّنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك، فقد تضمَّن ذلك من الثناء على الرب بِسَعَة مجده، وكثرة عبيده، وكثرة سائليه. الهداية ما لا يتضمنه لفظُ الإفراد»[2].

جاء ابن القيم –من خلال هذا النص– برأي لم يأت به سابقوه، وذلك حين أرجع السبب في الإتيان بضمير الجمع –دون الإفراد– في الآية السابقة إلى المقام، فهو يرى أن المقام أثناء الصلاة مقام عبودية وافتقار إلى الرب سبحانه وتعالى، ومقام إقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته، وهذا بالطبع يتطلب الثناء على الله عز وجل، ولهذا كان الإتيان بضمير الجمع أحسن وأفخم».

ويدعو ابن القيم إلى تأمل آيات الدعاء في القرآن الكريم؛ ليؤكد لنا صحة ما ذهب إليه، فبتأمل آيات الدعاء الواردة في الذكر الحكيم؛ نجد جمعيها على هذا النحو. يقول ابن القيم: «إذا تأملت أدعية القرآن رأيت عامتها على هذا النمط،

---

[1] الفاتحة : ٥.

[2] بدائع الفوائد (٢/ ٤٥٢) .

نحو: {رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ }[1]، ونحو دعاء آخر البقرة، وآخر آل عمران وأولها، وهو أكثر أدعية القرآن»[2].

ونجد ابن القيم يعاود ثانية في موضع آخر من "بدائعه" فيؤكد على ضرورة مراعاة المقام أثناء العملية الكلامية، فيضرب لنا مثلًا بالأمور التي يجب مراعاتها عند خطاب الملوك والرؤساء، فيقول: «مخاطبةُ الرؤساء بالقول اللَّيِّن أمرٌ مطلوب شرعًا وعقلًا وعرفًا؛ ولذلك تجدُ الناسَ كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– يخاطِبُ رؤساء العشائر والقبائل»[3].

ومن الأمور التي اشترطها عند مخاطبة الحكام والرؤساء أو من في منزلتهم: خفض الصوت حال الحديث معهم، قال: «لا تُخاطَبُ الملوكُ ولا تُسأَل برفع الأصوات، وإنما تُخفَضُ عندَهم الأصواتُ, ويُخْفى عندَهم الكلامُ بمقدار ما يسمعوه، ومن رفع صوته لديهم مَقَتُوهُ، ولله المثلُ الأعلى، فإذا كان يسمعُ الدّعاء الخَفِيَّ فلا يليقُ بالأدب بين يديه إلاّ خفض الصوت به»[4].

وقد استدل ابن القيم على صحة ما ذهب إليه بقوله: «ولهذا أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيسِ القبط بالخِطَاب اللَّيِّن».[5]

وقد لام ابن القيم على الصاحب الذي يطلب من صاحبه الذي نال منصبًا أن يعامله بنفس المعاملة التي كان عليها قبل الرياسة، دون مراعاة للحال التي أصبح بها صاحبه، فقال: «كثير من الناس يطلب من صاحبه –بعد نيله درجةَ الرياسة–

---

[1] البقرة : ٢٠١ .

[2] بدائع الفوائد (٢/ ٤٥٢) .

[3] المصدر نفسه ٣/١٠٦١.

[4] بدائع الفوائد ٣/ ٨٤٣ .

[5] نفسه ٣/ ١٠٦١ .

الأخلاقَ التي كان يعامِلُه بها قبلَ الرِّياسة؛ فلا يصادفُها، فينتقضُ ما بينهما من المودَّة؛ وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة»[١].

وقد شبّه ابن القيم الصاحب الذي يطلب من صاحبه –الذي نال منصبًا– أن يعامله بنفس المعاملة التي كان عليها قبل الرياسة بالصاحب الذي يطلب من صاحبه إذا سَكِرَ أخلاقَ الصَّاحي. وأتى لنا بعلة هذا التشبيه، فقال: «وهو بمنزلة من يطلبُ من صاحبه إذا سَكِرَ أخلاقَ الصَّاحي، وذلك غلطٌ؛ فإن للرِّياسة سَكْرةً كسكرة الخمر أو أشدَّ، ولو لم يكنْ للرِّياسة سَكْرة لما اختارَها صاحبُها على الآخرة الدائمة الباقية، فسكرتُها فوق سكرة القهوة بكثير، ومُحَالٌ أن يُرى من السكران أخلاقُ الصاحي وطبعه»[٢].

وهذا يعني أن ابن القيم يؤكد على ضرورة مراعاة المقام أثناء العملية الكلامية؛ فالخطاب لمن هو أعلى يتطلب أمورًا وقواعد يجب مراعاتها، وعدم إغفالها؛ حتى بين صحابيين نال أحدهما منصبًا أو رياسة، يجب –حينئذ– أن يختلف مستوى الخطاب، فيراعى فيه القواعد والحواجز.

وما ذهب إليه ابن القيم من الآراء السابقة يجعلنا نؤكد –بما لا يدع مجالًا للشك– على أنه قد سبق الغربيين روّاد (النظرية التداولية) [٣]من أمثال: "جون

---

[١] نفسه .

[٢] نفسه .

[٣] النظرية التداولية: عرفها "آن ماري ديلر" و"فرانسوا ريكاناتي" بأنها: «دارسة استعمال اللغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية». وعرّفها بهاء الدين محمد بقوله: «هي دراسة اللغة قيد الاستعمال أو الاستخدام Language In Use؛ بمعنى: دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية. لا في حدودها المعجمية، أوتراكيبها النحوية. هي دراسة الكلمات والعبارات والجمل كما نستعملها ونفهمها ونقصد بها في ظروف ومواقف معينة. لا كما نجدها في القواميس والمعاجم. ولا كما تقترح كتب النحوالتقليدية». وتقوم التداولية على «دراسة اللغة ==

أوستن"، و "هورن"، و"سيرل"، و"وليفنسون"، و "سبيربر"، و"روبين كارستون"، و"لاكوف". وقد كان للأخيرة نظرية تسمى بنظرية "التهذيب" ضمن مقالها (المنطق والتأدب). ونص هذه النظرية "لتكن مؤدبًا"[١]، وقد تفرعت هذه النظرية إلى ثلاث قواعد، هي:

١- قاعدة التعفف لا تفرض نفسك على المخاطب: أي ابقَ متحفظًا ومبتعدًا عن شؤون الآخرين، واحرص على عدم الإلحاح على مخاطبك، واترك مسافة بينكما.

٢- قاعدة التشكك (التخيير(: أي: أن يجعل المتكلم مقاصده مشكوكًا في أمرها، تاركًا الأساليب التقريرية، متجهًا نحو الاستفهام؛ ليجعل المخاطب يختار بنفسه؛ فجعْل الخيارات مفتوحة أمام مخاطبك يعطيه حرية أكبر.

٣- قاعدة التودد وتظهر هذه القاعدة حينما يكون المتحاورون في المرتبة نفسها، أو حينما يكون المتكلم في مرتبة أعلى من المخاطب، فيحاول أن يقوّي العلاقة بينهما؛ ليطمئن له المحاور الذي هو في مرتبة أدنى[٢].

وما نادت به "لاكوف" يتضح -كمال الوضوح- في آراء ابن القيم السابقة، حينما طالب بالخطاب الليّن مع الحكّام والرؤساء، وخفض الصوت أثناء العملية

==

بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في نفس الوقت». [ينظر: المقاربة التداولية لرانسواز ارمينكو، ص: ٦.، وتبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، بهاء الدين محمد مزيد، صـ ١٨].

(١) يقضي هذا المبدأ بأن يلتزم المتكلم والمخاطب -في تعاونهما- على تحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام، من ضوابط التهذيب ما لا يقل عما يلتزمان به من ضوابط التبليغ. [ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٨.صـ ٢٤٠.

(٢) نفسه، صـ ٢٤١ .

الكلامية، ومراعاة الخطاب حال تغير الأحوال مع البعض؛ فهذه القواعد –التي ذكرها– تلاقت مع نظرية "التأدب" التي وضعتها "لاكوف"، والتي دعت فيها إلى أن يتصرف المتحدثون بتأدب مع بعضهم؛ من أجل نجاح المشاركيين في عملية التخاطب(١).

وقد وقف ابن القيم على خطاب موسى–عليه السلام – لفرعون، في قوله تعالى:"﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾ (٢).

قال: «وتأمل امتثالَ موسى لما أمر به كيف قال لفرعون: {هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ }، فأخرَجَ الكلام معه مخرجَ السؤال والعَرْض لا مخرجَ الأمر، وقال: {إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ }ولم يقل: "إلى أن أُزَكِّيَكَ"، فنسبَ الفعلَ إليه هو، وذكر لفظ "التَّزَكِّي" دونَ غيره؛ لما فيه من البركة والخير والنماء، ثم قال: {وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ }: أكونُ كالدليل بين يديك الذي يسيرُ أمامَك»(٣).

بيّن ابن القيم من خلال هذه الآيات كيف راعى موسى عليه السلام مقام فرعون –باعتباره رئيسًا للقبط– في هذا الخطاب، حين أخرَجَ الكلام معه مخرجَ السؤال والعَرْض لا مخرجَ الأمر، فهكذا تكون مخاطبة الملوك والرؤساء.

نستنتج من ذلك: أن ترتيب الكلام بما يلائم وضع المخاطب، وبما يريد أن ينبّه المتكلم علي أهميته في الخطاب؛ واضح في آيات الذكر الحكيم منذ القِدم، وهو ما يسميه "غرايس"(٤) بمبدأ الأسلوب.

---

(١) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، صـ ٢٤٠.

(٢) النازعات : ١٨، ١٩ .

(٣) بدائع الفوائد ١٠٦١/٣.

(٤) فيلسوف معاصر، كرّس جُل جهده الفلسفي لمفهوم المعنى، وكل ما يدور في فلكه من مفاهيم أخرى. مبدأ "التعاون" أو "الأسلوب" قسَّمه جرايس إلى عدة فروع: الكم ، والنوع، ==

ومن مراعاة المقام –أيضًا– فيما عرضه ابن القيم: خطاب إبراهيم –عليه السلام – لأبيه في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾(١).

قال ابن القيم في تعليقه على قول الخليل لأبيه: «ابتدأ خطابَه بذكر أبوَّته الدَّالَّة على توقيره، ولم يُسَمِّه باسمه، ثم أَخْرج الكلامَ معه مخرجَ السؤال فقال: {يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا}ولم يقل: لا تعبدُ، ثم قال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ﴾(٢) فلم يقل له: إنك جاهلٌ لا علمَ عندَك، بل عَدلَ عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدُلُّ على هذا المعنى، فقال:{جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ }، ثم قال: {فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطًا سَوِيّٗا}».(٣)(٤)

الملاحظ من هذا الحوار: استنكاف إبراهيم عن التهديد والوعيد؛ احترامًا لمقام الأبوة، فهو يخاطب أباه بلفظ الوُدِّ (يا أبت) رغم عِظم مخالفته، ورغم أهمية القضية التي تتعلق بالكفر والإيمان، إلا أنه خاطبه بخطاب ليّن راعى فيه المقام.

وقد صوّر ابن القيم هذا التأدّب في الحوار الذي بدأ باستعطاف أبيه بنداء الأبوة: (يا أبت)، ثم إخْراج الكلامَ معه مخرجَ السؤال بدل النهي والأمر، فلم يقل: لا تعبدُ، ولم يقل له: إنك جاهلٌ لا علمَ عندَك، ثم أفسح المجال له للتفكر وإعادة النظر في

==

والكيف ، و قاعدة المناسبة. أي أن يلائم المقال مقام المخاطب. [ينظر: نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، د/ صلاح إسماعيل، دار قباء الحديثة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م، صـ ٧].

(١) مريم : ٤٢.

(٢) مريم : ٤٣.

(٣) الأية نفسها.

(٤) بدائع الفوائد ١٠٦٢/٣.

اعتقاده. وهذا التوضيح الرائع من ابن القيم يؤكد مدى إدراكه لمراعاة المقام الاجتماعي للخطاب الذي يحدث انطلاقًا من السياق.

ثانيًا: أسباب النزول:

بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ:طَرِيقٌ قَوِيٌّ فِي فَهْمِ مَعَانِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ [١]، وقد أجراه ابن القيم في ترجيح الدلالة وفهم مدلول العزيز الكريم في بعض الآيات القرآنية.

وسوف أعرض –فيما يلي– بعض النماذج التى كان لسبب النزول فيها أثر واضح في الكشف عن المعنى. أذكر منها:

١- قال ابن القيم: «السياق يُرشِد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالَّة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته. فانظر إلى قوله تعالى: { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ }[٢] كيف تجدُ سياقَه يدُلُّ على أنه الذليلُ الحقيرُ»[٣].

أكد ابن القيم –من خلال هذا النص– على أهمية السياق في تعيين المحتمل من الدليل، والاعتماد عليه في بيان مراد المتكلم، وساق لذلك مثالًا عيَّن مدلوله من خلال "سياق الموقف"، المتمثل في معرفة سبب النزول؛ فدلالة "الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ" في هذه الآية الكريمة لا تعني العزة والكرامة، إنما المراد: الذليل المهان الحقير، أو على سبيل السخرية والاستهزاء، ويؤكد ذلك ما ذكره الشيخ الواحدي من أن الآية نزلت في أبي جهل، حينما لقي النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: "مَا تَسْتَطِيعُ

---

[١] إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد (٢/ ٢٥٩) .

[٢] الدخان: ٤٩.

[٣] "بدائع الفوائد (٤/ ١٣١٤) .

لِي أَنْتَ وَلَا صَاحِبُكَ مِنْ شَيْءٍ. لقد علمت أني أمنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم". قال: فقتله الله يوم بدر، وأذلّه، وعيره بكلمته ونزل فيه {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ }(١).

فسياق الموقف الذي أجراه ابن القيم في هذه الآية هو ما ساعد على فهم مراد الله –عز وجل– من الآية.

٢– قوله تعالى:" ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(٢).

يقول ابن القيم: «وقد جاء أن سببَ نزولها: أن الصحابة قالوا: "يا رسول الله رَبُّنا قريبٌ فَنُنَاجِيَهُ، أم بعيدٌ فنُنَادِيَهُ؟"(٣)، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}(٤).

ثم بيَّن ابن القيم أن سياق الحال –المتمثل في سبب النزول– هو الذي أزال الغموض والحيرة التي كان فيها الصحابة، وذلك بإجابة الله –عز وجل– لهم، وإرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم عن هذا سألوا، فأُجيبوا بأنَّ ربَّهم تبارك وتعالى قريبٌ لا يحتاجُ –في دعائه وسؤاله– إلى النداء، وإنما يُسْأَلُ مسألةَ القريب المُنَاجَى، لا مسألةَ البعيد المنَادَى، وهذا القربُ من الدَّاعي هو قربٌ خاصٌ ليس قُرْبًا عامًّا من كلِّ أحدٍ، فهو قريبٌ من داعيه،

---

(١) أسباب النزول للشيخ الواحدي ، ت: كمال بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ . (ص: ٢٨١) ، تفسير ابن كثير (٧/ ٢٣٩) .

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) الحديث: أورده الشيخ الأصبهاني في "العظمة" عن محمد بن يحيى، عن محمد بن حميد، عن جرير، عن عبدة السجستاني، عن الصلت بن حكيم، عن أبيه، عن جده. [ينظر: العظمة للشيخ الأصبهاني (٢/٥٣٥)].

(٤) بدائع الفوائد ط عالم الفوائد (٣/ ٨٤٤) .

وقريبٌ من عابده، وأقرب ما يكون العبدُ من رَبِّه وهو ساجِدٌ، وهو أخصُّ من قربِ الإنابة وقرب الإجابة، الذي لم يُثْبِتْ أكثرُ المتكلمينَ سواه، بل هو قُرْبٌ خاصٌّ من الدَّاعي والعابد، كمَا قال النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– راويًا عن ربِّه تبارك وتعالى: "مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا"[1]؛ فهذا قربُهُ من عابدِه»[2].

---

[1] الحديث: أخرجه والإمام أحمد في مسنده، عن فليح، عن هلال، عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة. باب: مسند أبي هريرة رضي الله عنه. [ينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، (١٦/١٧٨)]. وابن ماجَّه في سننه، وَكِيعٌ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، باب: فضل العمل [ينظر: سنن ابن ماجّه: ابن ماجّه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (٤/١٢٥٥)].

[2] نفسه (٣/ ٨٤٥) .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبي المكرمات، وآله وصحبه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،،

ففي ختام هذه الدراسة يجب أن نقف قليلًا؛ لذكر أهم النتائج والتوصيات التي خرجت بها.

أولًا: النتائج.

وقد أوجزتها في نقاط على النحو الآتي:

١- السياق من أهم المعالم التي اعتمدها ابن القيم في تحليله الدلالي لتعلقه بالنصوص الشرعية: القرآن الكريم، والسنة الشريفة، واللغة.

٢- إرشادات ابن القيم للقرائن اللفظية تجعله سبّاقًا لعلماء اللغة المحدثين –من أمثال: فيرث وأولمان– في هذا النوع من السياق. أعني السياق اللغوي.

٣- السياق اللغوي يؤدي دورًا مهمًّا في توجيه المعنى واستنباط الأحكام الشرعية.

٤- تنبَّه ابن القيم مبكرًا لأهمية "السياق المقامي" في تعيين المعنى المحتمل، وكونه شرطًا من شروط صحة الكلام.

٥- ثبت بالبحث أصالة كثير من المصطلحات الحديثة، وتبين أن لكثير من النظريات الغربية الحديثة جذورًا في تراثنا العربي، وإن كان للغرب من فضل فإنه يكاد لا يتعدى التسمية ووضع المصطلح.

٦- الحذف آلية من آليات تماسك النص، وتناسق بنائه.

ثانيًا: التوصيات.

أوصي: بالسعي البحثي لتأصيل النظريات الحديثة، والوقوف على جذورها في التراث العربي، وإثبات أسبقية علمائنا في تلك الدراسات.

قائمة بأهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن: د. عبد الفتاح لاشين، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان ، ط١.
- ابن قيم الجوزية، حياته آثاره موارده، تأليف: بكر بن عبدالله أبو زيد ، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ط١: ١٤١٢م.
- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، المحقق: مصطفى شيخ مصطفى و مدثر سندس، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- أربع رسائل في النحو، حققها وعلق عليها: د. عبد الفتاح السيد سليم، مكتبة الأداب.
- أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، ت: كمال بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ .
- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، المطبعة العامرة .
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية ، قدم له وعلق عليه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١: ١٤٢٣ هـ.
- البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الفكر، عام النشر: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦ م.

- بدائع الفوائد: أَبو عَبْدِ اللَّهِ محمد ابْن قَيِّم الجَوْزِيَّةِ (٦٩١ – ٧٥١) ، ت: علي بن محمّد العمران ، (إشراف: بَكر بن عَبدِ اللَّهِ أَبُو زَيْد)، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٥ هـ.
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، بيروت، د. ت.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين السيوطي (ت:٩١١هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية –لبنان / صيدا.
- تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي: بهاء الدين محمد مزيد، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة ، ط١، ٢٠١٠م.
- التداولية من أوستن إلى غوفما: فيليب بالنشيه، تر: صابر الحباشة ، دار الحوار اللاذقية، سوريا، ط١، ٢٠٠٧م.
- تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، المحقق : سامي بن محمد سلامة، الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: مراقبة / محمد عبد المعيد ضان، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية – صيدر اباد/ الهند الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، عدد الأجزاء: ٦.
- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.

- دلالة السياق: ردة الله بن ضيف الطلحي، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٢٤هـ.
- ذيل طبقات الحنابلة: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م، عدد الأجزاء: ٥.
- سنن ابن ماجّه: ابن ماجّه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب : عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ)، حققه: محمود الأرناؤوط ، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ١١.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: ابن هشام، تح: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا.
- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: علي بن محمد الدخيل الله ، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.
- العظمة للشيخ الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة – الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ.
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: د. محمود السعران، دار النهضة العربيّة، بيروت، (د.ط).

- الكتاب: سيبويه، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط ٣، ١٩٨٨م.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٨.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ابن الأثير، تح: محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر –بيروت، عام النشر: ١٤٢٠ هـ.
- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، اختصره: شمس الدين ابن الموصلي (ت: ٧٧٤هـ)، تح: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر، ط١: ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي –بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م.
- المقاربة التداولية: رانسواز أرمينكو، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، د.ط، ١٩٨٦م.
- الموافقات في أصول الشريعة: إبراهيم الشاطبي، تح: الشيخ عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، لبنان ، ط١، ٢٠٠٤م، الناشر: مجلس

دائـرة المعـارف العثمانيـة – صـيدر ابـاد/ الهنـد، الطبعـة: الثانيـة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، عدد الأجزاء: ٦.

- نتائج الفكر في النَّحو: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت : ٥٨١هـ)، دار الكتب العلمية –بيروت، ط:١، ١٤١٢ – ١٩٩٢ م.
- نظريـة المعنـى في فلسفة بول جرايس: د/ صـلاح إسماعيل، دار قباء الحديثة للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٧م.
- الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر:١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٢٩.